اليَنابيع

عنترة بن شداد

فاروق خورشيد

يوم عَنترة

الشركة المصرية العالمية للنشر
لونجمان

مكتبة لبنان ناشرون

عنترة بن شداد

يوم عَنترة

إشراف . الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ، ١٩٩٧

١ (أ) شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

يطلب من **شركة أبو الهول للنشر**

٣ شارع شواربي بالقاهرة ت . ٣٩٣٥٦٠٨ ، ٣٩٢٤٦١٦

١٢٧ طريق الحرية (فؤاد سابقا) - الشلالات ، الإسكندرية ت . ٤٩٢٤٨٣٩

جميع الحقوق محفوظة : لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه أو تسجيله بأية وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر .

الطبعة الأولى ١٩٩٧

رقم الإيداع ١١٣١٠ / ١٩٩٦

الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠٢٣٢ - ٢

رسوم : نسيم نصيف

طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة

الينابيع

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

عنترة بن شداد

يوم عَنترة

فاروق خورشيد

الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

الْمَلِكُ زُهَيْرٌ وَخُدْعَةُ الحَرْبِ

كانَتِ المَعْرَكَةُ في حِلَّةِ « بَني المُصْطَلَقِ » قَدْ بَدَأَتْ تَأْخُذُ طابَعًا ثابِتًا وَمُتَكَرِّرًا: سِهامٌ تُتَبادَلُ مِنْ خَلْفِ السَّواتِرِ وَالجُدْرانِ، وَقِطَعُ الحِجارَةِ وَأَكْياسُ التِّبْنِ، وَحَرْبَةٌ تُلْقى هُنا، وَحَرْبَةٌ تُلْقى هُناكَ بِلا فاعِلِيَّةٍ جَديدَةٍ.

وَلَكِنْ ما إنْ يُحاوِل « بَنو المُصْطَلَقِ » مُتابَعَةَ الهُجومِ المُباشِرِ - حَتّى تَنْهالَ عَلَيْهِمُ السِّهامُ فَيُجْرَحَ واحِدٌ أَوِ اثْنانِ، وَيَعود المُهاجِمونَ أَدْراجَهُمْ.

وَما إنْ يُحاوِل بَنو عَبْسٍ فَكَّ الحِصارِ - حَتّى يَبْدَءوا هَجْمَةً جَديدَةً فَتَرُدُّهُمُ السِّهامُ وَالحِرابُ المُتَطايِرَةُ. وَكانَتِ المَعْرَكَةُ قَدْ غَدَتْ مُجَرَّدَ تَراشُقٍ مِنْ خَلْفِ السُّتورِ، وَلا أَمَلَ لأحَدٍ في كَسْرِ هُمودِها إلا لَوْ ضَحّى بِخَسارَةٍ كَبيرَةٍ

في الأَرْواحِ.

وَكانَ المَلِكُ « زُهَيْر » قَدْ نَجَحَ في تَجْميعِ قُوّاتِهِ في مَجْموعَتَيْنِ تَحْمي كُلٌّ مِنْهُما الأُخْرى، فَمَنْ في الدّارِ يَحْمونَ مَنْ في المَرْبِضِ، وَمَنْ في المَرْبِض يَحْمونَ مَنْ في الدّار، كَما كانَ الأَميرُ « مالِك » قَدْ نَجَحَ في اسْتِنْقاذِ مُعْظَمِ الخَيْلِ داخِلَ المَرْبِضِ بَعيدًا عَنِ السِّهامِ المُتَطايِرَةِ.

وَقالَ المَلِكُ « زُهَيْر » : « هَذا أَمْرٌ طالَ وَلا طائِلَ مِنْ وَرائِهِ. لَقَدْ سِرْنا مُغْمَضي الأَعْيُنِ إِلى كَمينٍ مُعَدٍّ بِحِذْقٍ. »

قالَ الأَميرُ « مالِكُ بْنُ زُهَيْر » : « مَنْ أَعَدَّ هَذا الكَمينَ دَبَّرَ أَمْرَ مُهاجَمَةِ الحِلَّةِ في غِيابِنا، وَأَخْشى ما أَخْشاهُ أَنْ تَقَعَ الحِلَّةُ فَريسَةً سَهْلَةً في يَدِ ‹‹ بَني المُصْطَلَق ››، بَيْنَما بَعْضُ فُرْسانِهِمْ يَحْجِزونَنا هُنا. »

قالَ « مالِكُ بْنُ قُراد » : « هذا الحالُ لا يَروقُ لي،

فَلَسْتُ أَثِقُ في قُدْرَةِ مَنْ في الدِّيارِ عَلى صِيانَتِها . »

قالَ المَلِكُ « زُهَيْر » : « هُناكَ الأَميرُ ‹‹ شاس ›› وَمَعَهُ ‹‹ الرَّبيعُ ››وَبَنو ‹‹ زِياد ›› . »

قالَ « مالِك » في إلْحاحٍ : « إنَّهُمْ لا يَتَوَقَّعونَ شَرًّا ، وَقَدْ يُؤْخَذونَ عَلى غِرَّةٍ . »

عادَ المَلِكُ « زُهَيْر » يَقولُ : « إنَّ مَعَهُمْ قُوَّةً ضَخْمَةً مِنَ العَبيدِ . »

وَلَكِنَّ صَوْتَهُ كانَ فاقِدَ الثِّقَةِ وَاليَقينِ ، فَقالَ الأَميرُ « مالِك » : « لَوْ أَنَّ ‹‹ شَدّادَ بْنَ قُراد ›› لَمْ يَحْتَلّ هَذا المَنْزِلَ وَسَطَ الحِلَّةِ لَكانَتْ خَسائِرُنا فادِحَةً، وَلَكِنَّ مُعْظَمَ فُرْسانِنا مَعَهُ، وَلَيْسَ مَعَنا هُنا إلا ما يَكْفي لِرَدِّ الهَجَماتِ عَلَيْهِ وَحِمايَةِ الخَيْلِ . »

قالَ المَلِكُ « زُهَيْر » في صَوْتٍ مُتْعَبٍ : « لَوْ كُنْتَ تُفَكِّرُ في هَجْمَةٍ جَديدَةٍ ، فاعْدِلْ عَنْها ، فَهَذا انْتِحارٌ أَكيدٌ . »

قالَ الأَميرُ « مالِك » في صَبْرٍ نافِدٍ: « لا بُدَّ مِنْ عَمَلِ شَيءٍ. »

قالَ المَلِكُ « زُهَيْر » : « عِنْدَما يحُلُّ الظَّلامُ نَستَطيعُ أَنْ نَتَسَلَّلَ فُرادى في حِمايَتِهِ لِنَدورَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَنُهاجِمَهُمْ، وَلكِنِ الآنَ لا أَمَلَ في أَنْ تَأْتِينا نَجْدَةٌ مِنَ الخارِجِ. »

ضَحِكَ « مالِكُ بْنُ قُراد » وَهُوَ يَقولُ في سُخْرِيَةٍ: « مَنْ يَدْري ؟ رُبَّما انْشَقَّتِ الأَرْضُ عَنْ ‹‹ عَنْتَرَة ›› يُنْقِذُ بَني عَبْسٍ كَما يَفْعَلُ كُلَّ مَرَّةٍ. »

قالَ الأَميرُ « مالِك » في تَرَدُّدٍ: « لَوْ مَعَنا ‹‹ عَنْتَرَة ›› لاقْتَحَمَ هَذا الحِصارَ بِمُفْرَدِهِ. »

وَقالَ المَلِكُ « زُهَيْر »: « وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ ‹‹ عَنْتَرَة ›› ؟ ‹‹ عَنْتَرَة ›› في المَراعي بَعيداً عَنْ كُلِّ شَيءٍ، وَلا يَعْرِفُ مِنْ أَمْرِ خُروجِنا أَوْ حِصارِنا هُنا شَيْئًا. »

وَانْبَعَثَتْ صَيْحَةٌ مُفاجِئَةٌ مِنَ الفُرْسانِ الَّذينَ يُراقِبونَ

الحِلَّةَ، فَأَخَذَ كُلٌّ مِنْهُمْ مَكانَهُ بِسُرْعةٍ، يُمْطِرونَ بِالسِّهامِ مَجْموعَةً مِنْ « بَني المُصْطَلَقِ »، كانَتْ تُحاوِلُ الوُصولَ إلى البَيْتِ الكَبيرِ، وَسَقَطَ واحِدٌ، وَتَلاهُ آخَرُ، ثُمَّ انْسَحَبَ الآخَرونَ مُسْرِعينَ.

* * *

قالَ رَجُلٌ مِنَ الغُزاةِ لِـ « بَسّام » في غِلْظَةٍ وَهُوَ يَصْفَعُهُ: « أَيْنَ عَبيدُ المَراعي أَيُّها العَبْدُ؟ أيُّ خُدْعَةٍ يَلْعَبُها بَنو عَبْسٍ هُنا؟ كَيْفَ يَتْرُكونَ المَراعِيَ بِلا عَبيدٍ يَحْرُسونَها، وَيَرْعَوْنَ المالَ هُنا؟ »

كانَ « بَسّام » مُقَيَّدَ اليَدَيْنِ خَلْفَ ظَهْرِهِ، مُقَيَّدَ القَدَمَيْنِ، مَرْبوطًا بِحَبْلٍ طَويلٍ إلى باقي العَبيدِ، وَكانَ الرُّعْبُ يَمْلأُ قَلْبَهُ كُلَّهُ، وَلا يَسْتَطيعُ أَنْ يَمْنَعَ اصْطِكاكَ أَسْنانِهِ أوِ اهْتِزازَ شَفَتَيْهِ، وَلَكِنَّهُ حاوَلَ بِصُعوبَةٍ أَنْ يَرُدَّ عَنْ سُؤالِ فارِسِ بَني المُصْطَلَقِ، فَقالَ:

« لَسْتُ أَدْري ، يا مَوْلايَ، لَقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّني سَأَجِدُهُمْ هُنا، وَلَكِنَّ المَراعِيَ خالِيَةٌ، وَهَذا ما جَعَلَني أُحِسُّ بِالْخَطَرِ قَبْلَ أَنْ تَهْجُمَ عَلَيْنا أَنْتَ وَفُرْسانُكَ . »

هَمَسَ « رَيّان » في أُذُنِ « بَسّام » وَكانَ مَرْبوطًا إلى جوارِهِ تَمامًا : « قُلْ لَهُمْ عَنْ ‹‹ عَنْتَرَة ››، قُلْ لَهُمْ. هُمْ يَكْرَهونَهُ، وَلَوْ عَرَفوا أَنَّنا جِئْنا لِقَتْلِهِ لَرَفَقوا بِنا . »

وَهَزَّ « بَسّام » جَسَدَهُ المُكَتَّفَ في رَفْضٍ وَخَوْفٍ، بَيْنَما صاحَ فارِسُ بَني المُصْطَلَقِ بِهِ قائِلاً : « بِماذا يَهْمِسُ هَذا العَبْدُ ؟ ماذا يَدورُ بَيْنَكُمْ مَعْشَرَ العَبيدِ ؟ هُناكَ شَيْءٌ تُخْفونَهُ عَنّي. » وَأَتْبَعَ كَلِماتِهِ بِصَفْعَةٍ قَوِيَّةٍ، سَقَطَ « بَسّام » إثْرَها عَلى الأَرْضِ.

وَصَرَخَ « رَيّان » وَقَدْ أَفْقَدَهُ الفَزَعُ صَوابَهُ: « نَحْنُ مَعَكُمْ ، نَحْنُ لَسْنا ضِدَّكُمْ ، لَقَدْ جِئْنا لِنَقْتُلَ ‹‹ عَنْتَرَة ›› !»

وَلَمْ تَنْفَعْ لَكَزاتُ « بَدْر » في إسْكاتِهِ، فَقَدِ الْتَفَتَ إلَيْهِ فارِسُ بَني الْمُصْطَلَقِ وَالاِهْتِمامُ يَبْدو عَلى مَلامِحِ وَجْهِهِ، وَقالَ: « تَكَلَّمْ أَيُّها العَبْدُ، تَكَلَّمْ، وَقُلْ أَوَّلاً مَنْ أَنْتَ ؟ وَلِماذا أَنْتُمْ هُنا ؟ وَأَيْنَ عَبيدُ المَراعي ؟ وَما هِيَ حِكايَةُ قَتْلِ ‹‹ عَنْتَرَة ›› هَذِهِ ؟ وَمُنْذُ مَتى كانَ عَبيدُ عَبْسٍ يَقْتُلونَ عَبْدًا مِنْهُمْ ؟»

انْدَفَعَ « رَيّان » يَقولُ في سُرْعَةٍ، وَكَأَنَّما حَياتُهُ نَفْسُها تَتَوَقَّفُ عَلى كَلِماتِهِ: « نَحْنُ عَبيدُ بَني ‹‹ زياد ››. أَنا عَبْدُ ‹‹ عُمارَة ›› ، وَ ‹‹ بَسّام ›› هذا عَبْدُ ‹‹ الرَّبيع ›› ، وَقَدْ جِئْنا لِنَقْتُلَ ‹‹ عَنْتَرَة ›› وَمَعَنا كُلُّ هَؤُلاءِ العَبيدِ، وَكُلُّهُمْ مِنْ بَني زِياد. فَنَحْنُ لا عَلاقَةَ لَنا بِبَني ‹‹ قُراد ›› ، وَعَدُوُّنا هُوَ عَدُوُّكُمْ . لَقَدْ جِئْنا لِنَقْتُلَ عَدُوَّكُمْ ‹‹ عَنْتَرَة ››. »

ضَحِكَ فارِسُ بَني الْمُصْطَلَقِ، وَهُوَ يَجْذِبُ « رَيّان » مِنْ رِدائِهِ نَحْوَهُ لِيُحَدِّقَ في وَجْهِهِ في عُنْفٍ، كَأَنَّما لِيَقْتَلِعَ

الحَقيقَةَ مِنْ وَجْهِهِ بِنَظَراتِهِ النّارِيَّةِ ، وَقالَ : « وَأَيْنَ «« عَنْتَرَة »» هَذا إِذَنْ ؟ وَأَيْنَ ذَهَبَ عَبيدُ المَراعي ؟ أَ تَتْرُكونَ أَمْوالَكُمْ بِلا رُعاةٍ ؟ تَكَلَّمْ . »

وَتَلَعْثَمَ « رَيّان » ، وَتَرَدَّدَتِ الكَلِماتُ فَوْقَ شَفَتَيْهِ ثُمَّ ماتَتْ ، فَقالَ « بَدْر » الَّذي كانَ يُتابِعُ الحِوارَ في أَمَلٍ وَخَوْفٍ : « لَقَدْ قالَ الحَقيقَةَ أَيُّها السَّيِّدُ . لَسْنا نَعْرِفُ أَيْنَ ذَهَبَ عَبيدُ المَراعي ، وَلا أَيْنَ ذَهَبَ «« عَنْتَرَة »» . نَحْنُ لَمْ نَجِدْ أَحَدًا هُنا ، وَقَبْلَ أَنْ نَسْتَوْضِحَ الأَمْرَ جِئْتُمْ أَنْتُمْ وَرَمَيْنا

السِّلاحَ، أَلَمْ نَرْمِ السِّلاحَ ؟ وَنَحْنُ لَمْ نَرْفَعْ سَيْفًا في وَجْهِ واحِدٍ مِنْكُمْ، لَسْنا نُريدُ أَنْ نُحارِبَكُمْ، فَلا حَرْبَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ، إنَّما حَرْبُنا مَعَ «عَنْتَرَةَ» . »

رَفَعَ فارِسُ بَني المُصْطَلَقِ « رَيّان » مِنْ يَدِهِ لِيَقَعَ مُتَكَوِّمًا إلى جِوارِ « بَسّام »، وَالْتَفَتَ إلى « بَدْر » وَهُوَ يَقولُ في ازْدِراءٍ وَسُخْرِيَةٍ : « لَمْ تُحارِبوا لأَنَّكُمْ لا تَعْرِفونَ كَيْفَ تُحاربونَ، إنَّما أَنْتُمْ تَغْتالونَ، تَقْتُلونَ بِلَيْلٍ وَمِنْ كَمينٍ، وَبَعيدًا عَنْ أَيِّ خَطَرٍ. أَنْتُمْ تُريدونَ قَتْلَ «عَنْتَرَةَ» !»

ثُمَّ ضَرَبَ « بَسّامًا »، وَقالَ لِرِجالِهِ: « لِيَذْهَبِ اثْنانِ مِنْكُمْ إلى حِلَّةِ عَبْسٍ لِيَعْرِفَ ماذا تَمَّ هُناكَ، فَأَخْشى أَنْ يَكونَ هُناك أَمْرٌ يُدَبِّرُهُ «عَنْتَرَة» وَالعَبيدُ. أَمّا هَؤُلاءِ فَقَيِّدوهُمْ هُنا وَ ارْموهُمْ إلى الذِّئابِ الجائِعَةِ تَفْتَرِسُهُمْ، فَلَسْنا في حاجَةٍ إلى مِثْلِهِمْ مِنَ العَبيدِ . »

وَانْطَلَقَ رَجُلانِ يَرْكُضانِ بِفَرَسَيْهِما نَحْوَ حِلَّةِ بَني

عَبْسٍ، بَيْنَما أَخَذَ باقي الرِّجالِ يَسوقونَ الإبلَ وَالأَبْقارَ وَالخُيولَ وَالأغْنامَ، الَّتي كانَتْ تَمْلأُ المَرْعى أَمامَهُمْ في سُرْعَةٍ. وَسَرْعانَ ما خَلا المَكانُ إلا مِنْ « بَسّام » وَمَنْ مَعَهُ مِنَ العَبيدِ مُقَيَّدينَ تَحْتَ وَهَجِ الشَّمْسِ المُحْرِقَةِ، وَكُلٌّ مِنْ « بَسّام » وَ « رَيّان » يَئِنّانِ مِنْ آلامِ الضَّرَباتِ وَالصَّفَعاتِ الَّتي حَلَّتْ بِهِما .

المُفاجَأةُ

كانَتْ فَرْحَةُ فُرْسانِ بَني المُصْطَلَق بعُثورِهِمْ عَلى النِّسْوَةِ الهارباتِ كَبيرَةً، بِحَيْثُ نَسوا كُلَّ حَذَرٍ وَهُمْ يَتَعَقَّبونَ جَرْيَهُمُ المُهَرْوِلَ الفَزِعَ، في حَرَكَةِ الصّائِدِ عِنْدَما يُحاصِرُ فَريسَتَهُ وَيَتَأَكَّدُ أَنَّهُ يُصيبُ بُغْيَتَهُ مِنْها لا مَحالَةَ.

وَأَخَذوا يُلَوِّحونَ بِالحِرابِ وَالقِسِيِّ وَالسُّيوفِ الَّتي يُمْسِكونَها في أَيْديهِمْ، وَهُمْ يَتَصايَحونَ فَرِحينَ، وَيَتَغامَزونَ، وَخُيولُهُمْ تَقْتَرِبُ مِنَ النِّسْوَةِ الهارباتِ؛ بَيْنَما ازْدادَ فَزَعُ النِّسْوَةِ، وَازْدادَ اضْطِرابُ جَرْيِهِنَّ، وَازْدادَ تَعالي صُراخِهِنَّ.

وَما إنِ اقْتَرَبَتْ خُيولُ بَني المُصْطَلَق مِنْهُنَّ حَتّى تَفَرَّقَ بَعْضُهُنَّ في رُعْبٍ، كَأَنَّ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ تُريدُ أَنْ تَهْرُبَ

وَحْدَها بَعيدًا عَنْ هَذا المَوْتِ الزّاحِفِ الصّاخِبِ. وَتَعالَتْ ضَحِكاتُ الفُرْسانِ، وَنِكاتُهُمُ البَذيئَةُ، وَكُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ يَجْري وَراءَ واحِدَةٍ مِنَ الجارياتِ، يَتَعَقَّبُها بِفَرَسِهِ وَقَدْ نَسِيَ كُلَّ شَيْءٍ إلا بَهْجَتَهُ بِالفَريسَةِ المُنْتَظَرَةِ.

وَفَجْأَةً صاحَ « عَنْتَرَة » ، وَتَفَرَّقَ جَمْعُ النِّسْوَةِ الرَّتيبُ، لِيَقْفِزَ عَبيدُ عَبْسٍ كُلٌّ عَلى فارِسٍ غافِلٍ لِلْخَطَرِ الَّذي دَهَمَهُ فَجْأَةً فَشَلَّ تَفْكيرَهُ، وَحَوَّلَهُ مِنْ صائِدٍ إلى فَريسَةٍ، وَمِنْ مَزْهُوٍّ إلى مَرْعوبٍ، وَيَقَعُ الفارِسُ مِنْ فَوْقِ فَرَسِهِ يَعْلوهُ أَحَدُ العَبيدِ، وَسَرْعانَ ما يُساعِدُهُ آخَرُ وَآخَرُ، يَضْرِبونَ بِالْهِراواتِ وَالحِجارَةِ وَأَيْديهِمْ، حَتّى النِّساءُ أَسْرَعْنَ وَرَجَعْنَ فَجْأَةً إلى الفُرْسانِ الَّذينَ سَقَطوا عَنْ صَهَواتِ خُيولِهِمْ يوسِعْنَهُمْ ضَرْبًا وَرَكْلاً وَعَضّا، وَتَخْميشًا.

وَصاحَ « عَنْتَرَة » : « الجِيادَ ، يا ‹‹ شَيْبوبُ ››! إيّاكَ أَنْ تَتْرُكَ الجِيادَ تُجْفِلُ ! اِجْمَعْها بِسُرْعَةٍ . »

ثُمَّ قفَزَ فَوْقَ فارسٍ يُحاولُ التّحَوُّلَ بجَوادِهِ لِيَهْرُبَ مِنْ هَذا الكَمينِ الغَريبِ، فَجَرَّهُ مِنْ فَوْقِ فَرَسِهِ وَلَكَمَهُ لَكْمَةً أَفْقَدَتْهُ الوَعْيَ، ثُمَّ قَفَزَ فَوْقَ الفَرَسِ وَشَدَّ الرُّمْحَ مِنْ يَدِ الفارِسِ الغائِبِ عَنِ الرُّشْدِ، وَصاحَ صَيْحَتَهُ القَوِيَّةَ، وانْقَضَّ عَلى مَنْ بَقِيَ مِنَ الفُرْسانِ يَمْنَعُ عَنْهُمْ طَريقَ الهَرَبِ، وَيُثْخِنُهُمْ جِراحًا وَتَقْتيلاً بِرُمْحِهِ المُشْرَعِ، وَمَهارَتِهِ الفائِقَةِ في اسْتِعْمالِ الرُّمْحِ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِ الجَوادِ. وَأَوْقَعَ فارسًا، واشْتَبَكَ مَعَ الثّاني حَتّى ضَرَبَه بِرُمْحِهِ في صَدْرِهِ فَسَقَطَ مُضَرَّجًا بِدِمائِهِ، ثُمَّ قفَزَ يَلْحَقُ بِفارِسَيْنِ نَجَحا في الهَرَبِ وَأَسْرَعا نَحْوَ الحِلَّةِ.

صاحَ « جَرير » : « إيّاكَ أَنْ يُفْلِتا مِنْكَ ، وَإلا حَذَّرا مَنْ في الحِلَّةِ مِنْ فُرْسانٍ. »

بَيْنَما أَسْرَعَ « شَيْبوب » يَجْري حَتّى حاذى أَحَدَ الفارِسَيْنِ، الَّذي أَخَذَ يُحاوِلُ دَفْعَهُ عَنْهُ بِسَوْطِهِ، وَلَكِنَّ « شَيْبوب » قَفَزَ فَجْأَةً فَأَمْسَكَ بِقَدَمِهِ، وَجَذَبَهُ بِشِدَّةٍ

لِيَسْقُطَ بَيْنَ أَقْدامِ الجَوادِ الخائفِ المَذْعورِ، وَكانَ « عَنْتَرَة » قَدْ لَحِقَ بالفارِسِ الآخَرِ وحاذاهُ، وَظَلَّ يَجْري إلى جِوارِهِ، وَمَدَّ يَدَهُ فَأَمْسَكَهُ بِقُوَّةٍ، وَانْتَزَعَهُ مِنْ فَوْقِ صَهْوَةِ جَوادِهِ، وَأَسْقَطَهُ عَلى الأَرْضِ، وَقَفَزَ إلى جِوارِهِ يَضْرِبُهُ بِعَقِبِ رُمْحِهِ لِيُفْقِدَهُ الوَعْيَ.

وَصاح بِأَخَوَيْهِ : « ‹‹ شَيْبوب ›› اِجْمَعْ كُلَّ الجِيادِ، وَلا تَتْرُكْ جَوادًا إلا عُدْتَ بِهِ، فَهَذِهِ غَنيمَتُنا نَحْنُ، وَقَدْ أَصْبَحَتْ لَنا جِيادٌ وَمِلْكُنا نَحْنُ. أَمّا أَنْتَ يا ‹‹ جَرير ›› ، فَأَسْرِعْ واجْمَعْ كُلَّ السِّلاحِ ، وَقَيِّدْ هَؤُلاءِ الفُرْسانَ بِالحِبالِ. أَيْنَ ‹‹ زاهِر ›› ؟»

صاحَ « زاهِر » الَّذي غَطَّتْهُ الدِّماءُ، وَجاءَ يَقْفِزُ مَزْهُوًّا بِدَوْرِهِ في المَعْرَكَةِ العَنيفَةِ الَّتي دارَتْ يَدًا لِيَدٍ وَرِجْلاً لِرِجْلٍ: « أَنا هُنا ، يا ‹‹ عَنْتَرَة ››. إِنَّ القِتالَ إلى جِوارِكَ يُعيدُ لِلرَّجُلِ مَعْنى رُجولَتِهِ. »

قالَ « عَنْتَرَة » : « اِجْمَعْ كُلَّ النِّساءِ ، يا ‹‹ زاهِر ›› ،

وَحاذِرْ أَنْ تُسْرِعَ واحِدَةٌ عائِدَةً إلى المَضارِبِ. نَحْنُ نَحْتاجُ إلَيْهِنَّ، فالخُدْعَةُ الواحِدَةُ يُمْكِنُ أَنْ تَنْجَحَ مَرَّتَيْنِ. »

قالَ « زاهِر » : « إنَّ لَكَ عَقْلَ مُحارِب ، يا « عَنْتَرَة » فَمَنْ كانَ يُفَكِّرُ في هَذِهِ الحيلَةِ ؟ جَمْعُ النِّساءِ يَنْشَقُّ فَجْأَةً عَنْ عَفاريتَ مِنَ الجِنِّ تَقْفِزُ فَوْقَ الخُيولِ وتَقْلِبُ كُلَّ المَوازينِ، فَلا يَنْفَعُ السِّلاحُ وَلا الخَيْلُ، بَلْ وتَدورُ المَعْرَكَةُ رَجُلاً لِرَجُلٍ، بَلْ لَعَلَّكَ لَوْ رَأَيْتَ ما حَدَثَ لَقُلْتَ امْرَأَةً بَلْ نِسْوَةً لِرَجُلٍ أَوْ رِجالٍ، فَقَدْ أَفْرَغَ النِّسْوَةُ كُلَّ خَوْفِهِنَّ وَحِقْدِهِنَّ عَلى الفُرْسانِ المُتَرَجِّلينَ عَنْ خُيولِهِمْ، وَلَوْ رَأَيْتَ ما فَعَلْنَ بِهِمْ لَفَزِعْتَ. »

ضَحِكَ « عَنْتَرَة » وَهُوَ يَقولُ: « لَسْتُ أُحِبُّ أَنْ أُحارِبَ النِّساءَ، يا « زاهِر ». هُمْ أَرادوا النِّساءَ فَأَعْطَتْهُنَّ النِّساءُ كُلَّ غَضَبِهِنَّ. »

قالَ « زاهِر » : « كانَ النَّصْرُ مِلْكَهُمْ، وَلَمْ يَدْروا مِنْ

أَيْنَ دُهِموا . »

قالَ « عَنْتَرَة » : « وَهَذا نَفْسُهُ ما سَنَفْعَلُهُ بِالباقينَ في ‹‹ الشَّرَبَّةِ وَالعَلَمِ السَّعْدِيِّ ›› . »

وَقَطَعَ حَديثَهُما صَوْتُ « زَبيبَة » تَصيحُ في وَلْوَلَةٍ : « وَلَدي ‹‹ عَنْتَرَة ›› ! أَيْنَ ‹‹ عَنْتَرَة ›› ؟»

صاحَ « عَنْتَرَة » : « أَنا هُنا ، يا أُمِّ . »

ثُمَّ ضَمَّها إلى صَدْرِهِ وَهِيَ تَضْحَكُ وَتَبْكي في وَقْتٍ واحِدٍ؛ تَلْمِسُهُ بِيَدَيْها، وَتَضُمُّهُ بِذِراعَيْها، وَتُقَبِّلُهُ في حَنانٍ وَشَغَفٍ وَدُموعُها تَمْلأُ وَجْهَها، وَسِنُّها ضاحِكَةٌ فَرِحَةٌ، وَقالَتْ:

« هَذِهِ ‹‹ عَبْلَة ›› كانَتْ تَخافُ عَلَيْكَ، وَهَذِهِ السَّيِّدَةُ ‹‹ أَسْماء ›› وَالسَّيِّدَة ‹‹ سُمَيَّة ›› . »

لَمْ يَلْتَفِتْ « عَنْتَرَة » إلى أَحَدٍ ، فَفَجْأَةً وَجَدَ نَفْسَهُ يُحَدِّقُ في عَيْنَي « عَبْلَة » العَميقَتَيْنِ الواسِعَتَيْنِ، تَحْمِلانِ لَهُ مِنَ

المَعاني ما يَفْتَحُ لَها قَلْبَهُ وَصَدْرَهُ وَ وِجْدانَهُ كُلَّهُ، وَيَفْهَمُ دونَ كَلامٍ، وَيَهْتَزُّ كُلُّهُ دونَ كَلامٍ.

كانَ يُريدُ أَنْ يَقولَ لَها إنَّ النَّصْرَ لَها، إنَّ وُجودَها نَفْسَهُ يَجْعَلُهُ يَهْزِمُ أَعْتى الفُرسانِ، وَيَخْرُجُ مِنْ أَشَدِّ المَآزِقِ هَوْلاً. إنَّهُ حينَ يَتَذَكَّرُ وَجْهَها تَتَفَتَّحُ أَمامَهُ السُّبُلُ إلى النَّصْرِ، وَإلى إحْرازِ المَجْدِ، وَإلى صُنْعِ الخَيْرِ، وَإلى نَجْدَةِ المَظْلومينَ، وَنُصْرَةِ المَلْهوفينَ.. وإنه.. إنه... »

وَبَلَغَهُ صَوْتُ السَّيِّدَةِ « أسْماء » تَقولُ: « لا تَكْفي الكَلِماتُ لِشُكْرِكَ، يا «عَنْتَرَة». أَنْتَ، وَاللهِ، نِعْمَ الفَتى. وَلَوْ كانَ كُلُّ عَبيدِ «عَبْس» مِثْلَكَ لَعِشْنا في أَمْنٍ وَسَلامٍ. »

صاحَتْ « عَبْلَة »، وَقَدْ عَلَتْ سَحابَةٌ وَجْهَها الجَميلَ: « ما هَذا الكَلامُ، يا أُمِّ؟ فِعْلُ «عَنْتَرَة» هَذا فِعْلُ رِجالٍ أَحْرارٍ، لا فِعْلَ عَبيدٍ. »

قالَتْ « زَبيبَة » : « وَفِعْلُ مَنْ مَعَهُ أَ لَيْسَ فِعْلَ رِجالٍ ؟ هُمْ رِجالٌ أَيْضًا مِثْلُ رِجالِكُمْ، أ لا تُريدونَ إدْراكَ هَذا ؟ لَيْسَ لَكُمُ الآنَ مِنْ مُعينٍ غَيْرُهُمْ فَأَعْطوهُمْ بَعْضَ ثِقَتِكُمْ . »

تَرَدَّدَتِ السَّيِّدَةُ « أسْماء » ثُمَّ فَتَحَتْ فَمَها، وَعادَتْ تُطْبِقُهُ دونَ أَنْ تَتَكَلَّمَ، بَيْنَما قالَتْ « سُمَيَّة » : « نَحْنُ نُحْسِنُ مُعامَلَتَهُمْ وَنُطْعِمُهُمْ وَنَكْسوهُمْ، أَ لَيْسوا شاكِرينَ لَنا كُلَّ هَذا ؟»

ضَحِكَتْ « زَبيبَة » في مَرارَةٍ وقالَتْ: « لا فائِدَةَ، لَنْ تَفْهَمَ واحِدَةٌ مِنْكُنَّ شَيْئًا . »

وَجاءَ « جَرير » لِيَقولَ لِـ « عَنْتَرَة » : « جَمَعْنا كُلَّ السِّلاحِ، وَ ‹‹ شَيْبوب ›› أَحْضَرَ كُلَّ الخُيولِ، وَقَيَّدْنا الأَسْرى، وَهُمْ كَثيرونَ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ تَمَلَّكَهُ الرُّعْبُ مِنَ التَّحَوُّلِ الفُجائِيِّ لِلْمُطارَدَةِ فاسْتَسْلَمَ دونَ قِتالٍ . »

ضَحِكَ « عَنْتَرَة » وَهُوَ يَقولُ : « الرُّعْبُ يَعْمَلُ في الأَحْرارِ ما يَفْعَلُهُ في العَبيدِ ، يا «« جَرير »» . وَالآنَ أَرْغِموهُمْ عَلى خَلْعِ مَلابِسِهِمْ، وَقَيِّدوهُمْ مَعًا، واحْمِلوهُمْ إلى الكَهْفِ عِنْدَ أَرْضِ المَرْعى، وَلْيَبْقَ اثْنانِ لِحِراسَتِهِمْ . »

صاحَتِ السَّيِّدَةُ « أَسْماء » في اسْتِنْكارٍ : « أَ مُثْلَةٌ بِالرِّجالِ ؟ هَؤُلاءِ فُرْسانٌ ، يا «« عَنْتَرَة »» . صَحيحٌ هُمْ قَدْ هُزِموا ، وَلَكِنْ لا يَجِبُ أَنْ يُعامَلوا مُعامَلَةَ العَبيدِ . »

لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْها « عَنْتَرَة » ، وَإِنَّما قالَ لِـ « شَيْبوب » : « لِيَرْتَدِ رِجالُنا مَلابِسَ الفُرْسانِ وَيُخْفوا وُجوهَهُمْ في «« فِدْرَةِ »» العَمائِمِ، وَيَحْمِلوا السِّلاحَ كامِلاً . وَلْتَتَجَمَّعِ النِّسْوَةُ وَيُسَقْنَ إلى أمامٍ وَهُنَّ يُعْرَضْنَ ؛ حَتّى يَتَوَهَّمَ مَنْ في دِيارِ «« عَبْس »» مِنْ فُرْسانِ بَني «« المُصْطَلَق »» أَنَّ فُرْسانَهُمْ يَعودونَ بِالْغَنائِمِ، وَلْنُسْرِعْ فَلا وَقْتَ هُناكَ . »

وَعادَتِ السَّيِّدَةُ « أسْماء » تَشْهَقُ في اسْتِنْكارٍ وَتَضْرِبُ صَدْرَها بِيَدِها ، وَهِيَ تَقولُ:

« يَسوقُنا العَبيدُ أَمامَهُمْ كَأَنَّنا أَسْرى ، وَأَسْرى لِمَنْ . . . لِهَؤُلاءِ العَبيدِ ؟»

فَجْأَةً صاحَتْ « عَبْلَة » في صَبْرٍ نافِدٍ : « صَمْتًا ، يا أُمِّ . »

بَيْنَما قالَتْ « سُمَيَّة » :

« هَذِهِ كَلِماتُ الشُّكْرِ نَقولُها لَهُمْ بَعْدَ أَنْ خَلَّصونا مِمّا هُوَ أَسْوَأُ مِنَ القَتْلِ . »

بَيْنَما قالَتْ « زَبيبَة » :

« اُمْكُثي وَحْدَكِ هُنا ، وَاتْبَعينا عَلى مَهْلٍ ، أَمّا نَحْنُ فَنُريدُ أَنْ نَسْتَرِدَّ الحِلَّةَ مِنْ أَيْدي غاصِبيها ، وَما يَقولُهُ ‹‹ عَنْتَرة ›› نافِذٌ حَتّى نَسْتَرِدَّ الحِلَّةَ . »

وَرَفَعَتِ السَّيِّدَةُ « أسْماء » رَأْسَها في حِدَّةٍ ، وَجالَتْ

بنَظَرِها في النِّسْوَةِ المُتحلِّقات حَوْلَها ، ولَكِنَّ كُلَّ واحِدَةٍ أَشاحَتْ برأْسِها عَنْها في صَمْتٍ ، بَيْنَما قالَ « عَنْتَرَة » :

« هَيّا ، لا وَقْتَ لَدَيْنا . يَنْبَغي أَنْ نَصِلَ إلى الحِلَّةِ قَبْلَ أَنْ يُحِسَّ مَنْ فيها أَنَّ الفُرْسانَ الَّذينَ ذَهَبوا يُطارِدونَ النِّساءَ قَدْ تَأَخَّروا . »

الحِصار

قالَ « مالِكُ بْنُ قُراد » : « قَلْبي يُحَدِّثُني بِشَرٍّ، فَهُمْ لا يُحارِبونَ وإنَّما هُمْ يُحاوِلونَ حَجْزَنا داخِلَ الحِلَّةِ؛ حَتّى لا نَتَحَرَّكَ وَلا نُغادِرَها . »

قالَ المَلِكُ « زُهَيْر » : « لا بُدَّ مِنْ أَنْ يَنْفُذَ أَحَدُنا مِنْ هَذا الحِصارِ لِيُحْضِرَ لَنا مَدَدًا مِنَ المَضارِبِ يُهاجِمُ المُحاصِرينَ مِنَ الخَلْفِ لِنَفُكَّ هَذا الحِصارَ، فَما أَحْسَبُ إلا أَنَّ أَمْرًا جَلَلاً يَحْدُثُ لِديارِ ‹‹ عَبْس ›› . »

كانَ الأَميرُ « مالِكُ بْنُ زُهَيْر » يَسْمَعُ هَذا الحَديثَ وَهُوَ يُطْرِقُ بِرَأْسِهِ مُفَكِّرًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وقالَ : « عِندي رَأْيٌ لو نَفَّذْناه لأَمْكَنَني أَنْ أَخْتَرِقَ هَذا الحِصارَ وَأَصِلَ إلى دِيارِ ‹‹ عَبْس ›› وَأَعودَ بِالنَّجْدَةِ . »

الْتَفَتَ إِلَيْهِ أَبوهُ المَلِكُ « زُهَيْر » باهْتِمامٍ وَقالَ :

« قُلْ ، يا ‹‹ مالِك ›› . »

قالَ « مالِك » : « نَنْقَسِمُ إلى ثَلاثَةِ أَقْسام : قِسْمٌ يَبْقى هُنا وَيُناوِشُ كُلَّ مَنْ يَظْهَرُ مِنْ رِجالِ بَني ‹‹ المُصْطَلَق ›› ، وَقِسْمٌ يَرْفَعُ الدُّروعَ وَالدَّرَقَ فَوْقَ الخُيولِ ؛ لِيَحْمِيَ بِها القِسْمَ الثّالِثَ الَّذي يُمْطِرُ المُحاصِرينَ لَنا بِوابِلٍ مِنَ السِّهامِ المُتَلاحِقَةِ ، في هَجْمَةٍ تُريدُ الوُصولَ إلى مَكانِ ‹‹ شَدّاد بْن قُراد ›› وَمَنْ مَعَهُ مِنْ فُرْسانٍ ، في الدّارِ الَّتي تَتَوَسَّطُ الحِلَّةَ . وَحينَ يَتَرَكَّزُ الهُجومُ كُلُّهُ عَلى القِسْمَيْنِ ، يَنْدَفِعُ القِسْمُ الثّالِثُ لِيَصِلَ بِالفِعْلِ إلى الدّارِ فَيَزيدُ مِنِ اضْطِرابِ المُحاصِرينَ لَنا ، وَفي نَفْسِ الوَقْتِ أُسْرِعُ بِفَرَسي إلى النّاحِيَةِ الأُخْرى ؛ خارِجًا مِنَ الحِلَّةِ في الثُّغْرَةِ الَّتي سَيُحْدِثُها تَجَمُّعُها لِصَدِّ هُجومٍ مُرْتَقَبٍ ؛ وَبِهَذا نُحَقِّقُ هَدَفَيْنِ ، أَوَّلُهُما أَنْ نَجْمَعَ الرِّجالَ كُلَّهُمْ في مَكانٍ واحِدٍ هُمْ وَخُيولُهُمْ ، وَبِهَذا نَسْتَرِدُّ زِمامَ القُوَّةِ وَالمُبادَرَةِ ،

وَالثّاني أَنْ أَتَمَكَّنَ أنا عَلى ظَهْرِ جَوادي مِنِ اخْتِراقِ الحِصارِ، وَالإسْراعِ إلى الدِّيارِ لإحْضارِ النَّجْدَةِ.»

قالَ المَلِكُ «زُهَيْر» : «نِعْمَ المَشورَةُ ، يا أَميرُ «مالك». وَلَكِنْ قَدْ يَلْتَفِتُ القَوْمُ إلَيْكَ فَيُمْطِرونَكَ بِسِهامِهِمْ، أَوْ يَتَعَقَّبُكَ بَعْضُهُمْ لِمَنْعِكَ مِنِ اخْتِراقِ الحِصار.»

ضَحِكَ الأميرُ «مالِكُ بْنُ زُهَيْر» ضِحْكَةَ الواثِقِ بِنَفْسِهِ، المُطْمَئِنِّ إلى قُدْرَتِهِ وَفُروسِيَّتِهِ، وَقالَ: «رَتِّبوا أَنْتُمْ أُمورَكُمْ، واتْرُكوا اخْتِراقَ الحِصارِ لي.»

لَمْ يُضِعِ المَلِكُ «زُهَيْر» وَقْتًا، بَلْ بَدَأَ يَخْتارُ الرِّجالَ لِكُلِّ قِسْمٍ مِنَ الأَقْسامِ الثَّلاثَةِ ، وَيُحَدِّدُ لِكُلِّ قِسْمٍ فائِدَةً ، وَيُوَضِّحُ لِلرِّجالِ مَهامَّهُمْ. وَأَنْهى حَديثَهُ قائِلاً: «وبِهَذا نَجْتَمِعُ في مَكانٍ واحِدٍ حَتّى يَحُلَّ الظَّلامُ، وَسَواءٌ وَصَلَتْ لَنا نَجْدَةٌ أَوْ لَمْ تَصِلْ، فَلا بُدَّ مِنْ أَنْ نَخْتَرِقَ هَذا

الحِصارَ عِنْدَ حُلولِ الظَّلامِ . »

وَحينَ اسْتَعَدَّ الجَميعُ أَسْرَجَ الأميرُ « مالِك » جَوادَهُ وَلَبِسَ عُدَّةَ الحَرْبِ وَأَمْسَكَ سَيْفَهُ وَدِرْعَهُ، وَاسْتَعَدَّ لِلْوُثوبِ عِنْدَ إطْلاقِ إشارَةِ البَدْءِ بِالهُجومِ المُزْدَوِجِ .

* * *

كانَتْ فَرْحَةُ فُرْسانِ بَني « المُصْطَلَق » كَبيرَةً، بِوُصولِ الفارِسَيْنِ القادِمَيْنِ مِنَ المَراعي بِخَبَرِ أَسْرِ العَبيدِ المُقاتِلينَ، وَخُلُوِّ المَراعي مِنَ العَبيدِ، وَخُلُوِّ المَجالِ أَمامَ رِجالِهِمْ لِجَمْعِ كُلِّ مالِ « عَبْس » وَسَوْقِ الخُيولِ وَالإبِلِ والأَبْقارِ وَالأَغْنامِ؛ غَنيمَةً سَهْلَةً بِلا قِتالٍ أَوْ حَرْبٍ .

وذَهَبوا إلى أَنَّ عَبيدَ المَراعي هَرَبوا عِنْدَما أَحَسّوا بِقُدومِ فُرْسانِ بَني « المُصْطَلَق »، وَأَخَذوا يَجْمَعونَ الغَنائِمَ في وَسَطِ الحِلَّةِ، وَهُمْ يُغَنّونَ وَيَضْحَكونَ وَيُعابِثونَ الأسارَى مِنْ فُرْسانِ « عَبْس » وَيَرْكَبونَهُمْ بِالإهانَةِ وَالازْدِراءِ ،

وَهُمْ يُبَشِّرونَ أَنْفُسَهُمْ بِعَوْدَةٍ سَريعَةٍ إلى دِيارِهِمْ لِلْقَضاءِ عَلى المُحاصَرينَ هُناكَ مِنْ فُرْسانِ المَلِكِ « زُهَيْر » وَفُرْسـانِ « عَبْس ».

وَازْدادَتْ فَرْحَتُهُمْ عِنْدَما انْبَعَثَتْ صَيْحَةٌ مِنْ أَطْرافِ الحِلَّةِ، تُعْلِنُ عَنْ أَسْرِ النِّساءِ وَعَوْدَتِهِنَّ في حَراسَةِ الفُرْسانِ الَّذينَ خَرَجوا لِمُطارَدَتِهِنَّ. وَتَرَكَ الجَميعُ ما في أَيْديهِمْ مِنْ غَنائِمَ وَ وَقَفوا يَنْظُرونَ ناحِيَةَ المَراعِي، فإذا بِالنِّساءِ يُسْرِعْنَ أمامَ سَنابِكِ الخَيْلِ الَّتي أَخَذَ راكِبوها يَحُثّونَهُنَّ في غِلْظَةٍ بِأَطْرافِ الرِّماحِ وَدَفْعِ الخَيْلِ نَفْسِها، وَصاحَ فُرْسانُ بَني « المُصْطَلَق » فَرَحًا وَهَلَّلوا، عِنْدَما وَصَلَتِ النِّساءُ الباكِياتُ إلى داخِلِ الحِلَّةِ، وَأَسْرَعوا يَتَكأْكَئونَ حَوْلَهُنَّ وَيُمْطِرونَهُنَّ بِأَلْفاظٍ قَبيحَةٍ مَليئَةٍ بِالإهانَةِ وَالمُجونِ، وَلَمْ يَلْتَفِتوا إلى الفُرْسانِ الَّذينَ تَحَرَّكوا بِخُيولِهِمْ في نِصْفِ دائِرَةٍ أَحاطَتْ بِهِمْ وَسَطَ المَيْدانِ.

وَفَجْأَةً صاحَ « عَنْتَرَة »: « يا لَعَبْسٍ.. يا لَعَبْسٍ. »

وانْهال وابلٌ مِنَ السِّهام يُصيبُ الفُرْسانَ المَذْهولينَ، وَقَبْلَ أَنْ يُفيقوا انْفَضَّ جَمْعُ النِّساءِ عَنْ « شَيْبوب » يَهْجُمُ وَمَعَهُ مَجْموعَةٌ مِنَ الرِّجالِ صارخًا في صَيْحَةٍ هِيَ صَدًى لِصَيْحَةِ أَخيهِ: « يا لَعَبْسٍ . . يا لَعَبْسٍ . »

وَعَلى الأَرْضِ وَسَطَ المَيْدانِ قالَ الأميرُ « شاس » : « أَ تَرَوْنَ ما أَرى ، أَمْ هَذا حُلْمُ يَقَظَةٍ ؟ »

رَفَعَ « الرَّبيعُ بْنُ زِياد » رَأْسَهُ المُطْرِقَ وَحَدَّقَ أَمامَهُ وَهَمَسَ: « إِنَّهُمْ رِجالُنا ، لا بُدَّ أَنَّهُ ‹‹ بَسّام ›› عادَ يُنْجِدُنا بِرِجالِهِ . »

قالَ « عَمْرو بْنُ مالِك » في مَرارَةٍ : « إِنَّهُ لَيْسَ ‹‹ بَسّامًا ›› ، أَعْرِفُ هَذِهِ الصَّيْحَةَ وَسْطَ آلافِ الصَّيْحاتِ. هَذا ‹‹ عَنْتَرَة ›› عادَ يُسَجِّلُ فَضْلَهُ عَلى بَني ‹‹ عَبْس ›› مِنْ جَديدٍ . »

وَسَقَطَ أَحَدُ فُرسانِ بَني « المُصْطَلَقِ » أَمامه مُضَرَّجًا

بِدَمِهِ، بَيْنَما امْتَلأَ المَيْدانُ بِالصَّيْحاتِ، وَصَليلِ السُّيوفِ، وَقَرْعِ الرِّماحِ، وَصَهيلِ الخُيولِ، وَصَيْحاتِ النِّساءِ اللاتي اشْتَرَكْنَ في المَعْرَكَةِ يَجْمَعْنَ الحِجارَةَ وَيَقْذِفْنَ بِها بَني «المُصْطَلَقِ»، الَّذينَ هَرَبوا كُلٌّ واحِدٍ إلى ناحِيَةٍ، وَرِجالُ «عَنْتَرَةَ» يَتَعَقَّبونَهُمْ وَيَقْتُلونَهُمْ أَوْ يَأْسِرونَهُمْ واحِدًا واحِدًا.

وَأَسْرَعَ «عَنْتَرَةُ» يَشُقُّ طَريقَهُ وَسْطَ جُموعِ الفُرْسانِ المُقاتِلينَ وَهُوَ يَضْرِبُ بِلا هَوادَةٍ وَلا رَحْمَةٍ، نَحْوَ المَكانِ الَّذي جَثا فيهِ فُرْسانُ «عَبْسٍ» المَأْسورونَ المُقَيَّدونَ، وَما إنْ وَصَلَ إلَيْهِمْ حَتّى قَفَزَ عَنْ جَوادِهِ، وَأَخَذَ يَقْطَعُ قُيودَهُمْ وَهُوَ يَقولُ:

«شاهَ مِثْلُ هَذا اليَوْمِ الَّذي يُقَيَّدُ فيهِ سادَةُ ‹‹عَبْس›› .»

قالَ «عُمارَةُ بْنُ زياد» في مَرارَةٍ وَفي صَوْتٍ هامِسٍ مَكْظومٍ : «وَشاهَ مِثْلُ هَذا اليَوْمِ الَّذي يُحَرِّرُهُمْ فيهِ هَذا

العَبْدُ الأسْوَدُ اللَّئيمُ. »

وَقال « عَمْرو بْنُ مالِك » : « سَيَزْهو في شِعْرِهِ عَلَيْنا بَعْدَ اليَوْمِ، وسَيَتَناقَلُ العَرَبُ فَخْرَهُ عَلَيْنا. »

قالَ « الرَّبيعُ » وَهُوَ يُحَرِّرُ يَدَيْهِ مِنُ القُيودِ، وَيَقِفُ مُتَحَسِّسًا جُرْحَهُ: « لَقَدْ أَفْلَتَ مِنْ ‹‹ بَسّام ›› وَرِجالِهِ، وَها هُوَ يَنْصُرُ عَبْسًا مِنْ جَديدٍ. »

ضَحِكَ الأميرُ « شاس » ضِحْكَةً مُرَّةً ساخِرَةً وَهُوَ يَقولُ: « أَ لَمْ تَسْمَعْ ما قالَهُ الفارسانِ ؟ لَقَدْ رَمى ‹‹ بَسّام ›› وَعَبيدُهُ أَسْلِحَتَهُمْ عِنْدَ أَوَّلِ بادِرَةِ خَطَرٍ، وَاسْتَسْلَموا دونَ قِتالٍ. »

وَارْتَفَعَتْ صَيْحاتُ الفَرَحِ وَالتَّهْليلِ مِنْ نِساءِ « عَبْس »، وَ « شَيْبوب » وَ « جَرير » يَسوقانِ الأَسْرى مُقَيَّدينَ بِالحِبالِ وَسْطَ المَهانَةِ وَالإذْلالِ.

وَقالَتْ « زَبيبَة » : « سَلِمَتْ يَدُكَ يا ‹‹ عَنْتَرَة ››. هَذا

يَوْمٌ لَكَ عَلى « عَبْس »، وَيَوْمٌ لِـ ‹‹ عبْس ›› عَلى بَني ‹‹ المُصْطَلَق ››. »

وَقالَ « عُمارَة » لأخيهِ « الرَّبيع » : « اُنْظُرْ إلى ‹‹ عَبْلَة ›› تَنْظُرُ إلى هَذا العَبْدِ وَكَأَنَّهُ فارِسُ الفُرْسانِ. »

صاحَ « عَمْرو » في حَنَق: « كَفى ، أَعْطوني سَيْفًا وَسَأَقْضي عَلَيْهِ الآنَ قَبْلَ أَنْ يَفْضَحَنا بِشِعْرِه. »

قالَ الأميرُ « شاس » في حِدَّةٍ : « كَفى ، يا ‹‹ عَمْرو ابْنُ مالِك ›› ! لَوْ خَدَشْتَهُ مُجَرَّدَ خَدْشَةٍ لأكَلَكَ رِجالُ عَبْسٍ اليَوْمَ، وَلَرَجَمَتْكَ نِساؤُها بِالحِجارَةِ. اِصْبِرْ، هَذا يَوْمٌ لَهُ كَما قالَتْ أُمُّهُ. وَلَنْ يَسْتَمِرَّ حُسْنُ الطّالِعِ مُلازِمًا لَهُ إلى الأَبَدِ. »

وَأَخَذَ كُلٌّ مِنْهُمْ يَبْحَثُ عَنْ سِلاحِهِ وَعَنْ [illegible] سَقَطَ أَسْلابِ بَني « المُصْطَلَقِ »، بَيْنَما أَخَذَتِ النِّساءُ وَهُنَّ يُزَغْرِدْنَ وَيَتَصايَحْنَ في سَعادَةٍ يُعِدْنَ الأَسْلابَ إلى

بُيوتِهِنَّ .

وَكانَ « جَرير » يَحْصُرُ القَتْلى وَالجَرْحى ، بَيْنَما كانَ « شَيْبوب » وَمَعَهُ جَمْعٌ مِنَ العَبيدِ الفُرْسانِ يَسوقونَ الأَسْرى أَمامَهُمْ، وَيَجْمَعونَهُمْ في دائِرَةٍ كَبيرَةٍ، وَيَصْنَعونَ حَوْلَها سِياجًا مِنَ الحِبالِ المَرْبوطَةِ بَعْضُها إلى بَعْضٍ وَالمَشْدودَةِ إلى الأَرْضِ بِأَوْتادٍ قَوِيَّةٍ . وَاقْتَرَبَتْ « عَبْلَة » تَشُقُّ طَريقًا لَها إلى « عَنْتَرَة » الَّذي أَحاطَتْهُ النِّساءُ وَالعَبيدُ بِعِباراتِ التَّمْجيدِ وَالشُّكْرِ وَالعِرْفانِ، وَقالَتْ لَهُ: « لَنْ يَجْرُؤَ أَحَدٌ بَعْدَ اليَوْمِ أَنْ يَقولَ عَنْكَ إنَّكَ عَبْدٌ مِنْ عَبيدِ المَراعي . »

ضَحِكَ « عَنْتَرَة » في مَرارَةٍ وَهُوَ يَقولُ: « سَمِعْتُ هَذا الكَلامَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ مِنْ قَبْلُ، وَلَكِنْ ما إنْ تَبْعُدُ الأَيّامُ قَليلاً حَتّى تَنْسى « عَبْس » وَتَعودَ لِتَضَعَني في مَكاني عِنْدَها - عَبْدًا مِنْ عَبيدِ المَراعي . »

كانَتْ عَيْنا « عَبْلَة » تَتَأَلَّقانِ إعْجابًا وإعْزازًا وَهِيَ

تَقولُ: « بَعْدَ كُلِّ ما فَعَلْتَهُ اليَوْمَ ؟»

قالَ « عَنْتَرَة » : « أ لَمْ تَفْعَلْهُ بَعْدَ كُلِّ أَفْعالي بِالأَمْسِ القَريبِ ؟»

عَلَتْ غَمامَةٌ وَجْهَ « عَبْلَة » وَأَطْرَقَتْ صامِتَةً وَهِيَ تَقولُ: « لَنْ يَنْسَى أَحَدٌ مِنّا ما فَعَلْتَ، وَلَنْ نَجْعَلَ أَحَدًا يَنْسى . »

رَقَّ صَوْتُ « عَنْتَرَة » وَارْتَجَفَتْ نَبَراتُ صَوْتِهِ وَهُوَ يَقولُ: « يَكْفي أَنَّكِ تَذْكُرينَ ، يا ‹‹ عَبْلَة ›› . »

وَابْتَسَمَتْ « عَبْلَة » فَأَشْرَقَتْ دُنْيا « عَنْتَرَة » وَنَسِيَ إجْهادَهُ، وَمَخاطِرَ المَعْرَكَةِ حَوْلَهُ، وَهُمومًا قاسِيَةً تَمْلأُ نَفْسَهُ. وَلَكِنَّ صَوْتَ « زاهِر » قَطَعَ عَلَيْهِ الاِسْتِمْرارَ في نَجْواهُ ، إذ قالَ : «لَقَدْ تَحَدَّثَ الأَسْرى مِنْ بَني ‹‹ المُصْطَلَقِ ›› ، يا ‹‹ عَنْتَرَة ›› وَالأَمْرُ جَلَلٌ . »

رَفَعَ « عَنْتَرَة » بَصَرَهُ إلَيْهِ، إلى وَجْهِهِ الأَسْوَدِ الَّذي

يَلْمَعُ بإشْراقَةِ الزَّهْوِ، وَعَيْنَيْهِ السَّوْداوَيْنِ تُومِضانِ بحَماسٍ جَديدٍ، وَرُجولةٍ مُسْتَعادَةٍ، وَإلى السَّيْفِ في يَدِهِ تُلَوِّثُهُ الدِّماءُ، وَإلى صَدْرِهِ العَريضِ يَرْتَفِعُ وَيَهْبِطُ في قُوَّةٍ وَحَيَويَّةٍ، وَابْتَسَمَ وَقالَ لِـ « عَبْلَة »: « هَذا واحِدٌ لَنْ يَنْسى، لَقَدْ وُلِدَ ‹‹ زاهِر ›› اليَوْمَ مِنْ جَديدٍ. »

قالَتْ « عَبْلَة » في دَهْشَةٍ: « لَسْتُ أَفْهَمُ، يا ‹‹ عَنْتَرَة ››. »

قالَ « عَنْتَرَة »: « في الأَزَماتِ يَكْتَشِفُ الرِّجالُ أَقْدارَهُمْ، وَيَعْرِفُ كُلٌّ مَعْدِنَهُ، وَاليَوْمَ عَرَفَ ‹‹ زاهِر ›› أَنَّهُ لَيْسَ عَبْدًا في أَعْماقِهِ، وَإنَّما هُوَ رَجُلٌ كامِلٌ. »

نَظَرَتْ « عَبْلَة » إلى « زاهِر » وَقالَتْ: « لَنْ أَنْسى لَكَ، يا ‹‹ زاهِر ›› أَنَّ سَيْفَكَ حَمانا اليَوْمَ، وَكافَحَ عَنّا كِفاحَ الرَّجُلِ الشَّريفِ. »

أَطْرَقَ « زاهِر » إلى الأَرْضِ، وَعَبَثَ بِقَدَمِهِ في

حَصَياتٍ صَغيرَةٍ ، ثُمَّ قالَ : « لَنْ يَحْمَدَ لي سَيِّدي ‹‹ مالِك ›› أَنَّني تَرَكْتُ المَراعِيَ وَانْضَمَمْتُ إلى ‹‹ عَنْتَرَة ›› ، فَكُلُّ القُطْعانِ قَدْ نُهِبَتْ . »

صاحَ « عَنْتَرَة » : « ماذا تَقولُ ، يا ‹‹ زاهِر ›› ؟»

قالَ « زاهِر » : « هَذا ما أَرَدْتُ أَنْ أُحَدِّثَكَ بِشَأْنِهِ ، لَقَدْ تَحَدَّثَ أَسْرى بَني ‹‹ المُصْطَلَقِ ›› ، وَكَشَفوا لَنا عُمقَ الخَديعَةِ الَّتي وَقَعَتْ فيها ‹‹ عَبس ›› اليَوْمَ . »

قالَتْ « عَبْلَة » وَقَدِ امْتُقِعَ وَجْهُها : « تَحَدَّثْ ، يا ‹‹ زاهِر ›› . . قُلْ ، ماذا قالَ الأَسْرى ؟»

قالَ « زاهِر » وَهُوَ يَنْظُرُ إلى « عَنْتَرَة » : « في المَراعي أَسَرَ فُرْسانُ بَني المُصْطَلَقِ ‹‹ بَسّامًا ›› وَعَبيدًا مُسَلَّحين كانوا مَعَهُ ، دونَ قِتالٍ ، وَاسْتَوْلَوْا عَلى كُلِّ ما في المَراعي مِنْ ماشِيَةٍ ، وَهُمْ يَسوقونَها الآنَ في اتِّجاهِ حِلَّتِهِمْ . »

صاحَتْ « عَبْلة » : « ‹‹ بَسّام ›› عَبْدُ ‹‹ الرَّبيعِ

بْنِ زِيادٍ ›› . . هُوَ . . نَعَمْ ، كانَ يَقْصِدُ إيذاءَكَ ، يا ‹‹ عَنْتَرَة ›› . »

قالَ « عَنْتَرَة » في صَوْتٍ مُطْمَئِنٍّ هادِئٍ : « اِنْتَهى هَذا الأَمْرُ الآنَ ، وَهُوَ الآنَ أَسيرٌ . »

قالَ « زاهِر » : « لَيْسَ هَذا كُلَّ ما في الأَمْرِ ، فَقَدْ أَعَدَّ بَنو ‹‹ المُصْطَلَق ›› كَميناً لِلْمَلِكِ ‹‹ زُهَيْر ›› وَفُرْسانِ ‹‹ عَبْس ›› في حِلَّتِهِمْ ، بَعْدَ أَنْ سَرَّبا إِلَيْهِ أَنْباءً كاذِبَةً عَنْ خُلُوِّها مِنَ الفُرْسانِ . »

قالَتْ « عَبْلَة » في خَوْفٍ : « لَمْ يَعُدِ المَلِكُ ‹‹ زُهَيْر ›› وَمَنْ مَعَهُ مِنْ فُرْسانٍ إِلى الآن . إِنَّ مَعَهُمْ أَبي . »

قالَ « عَنْتَرَة » : « سَنُسْرِعُ إِلى حِلَّةِ بَني ‹‹ المُصْطَلَق ›› لِنَتَحَرّى الأَمْرَ . قُلْ لِلرِّجالِ أَنْ يُعِدّوا خُيولَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَيَتَجَمَّعوا عِنْدَ الغَديرِ بِسُرْعَةٍ ، فَهَذا اليَوْمُ لَمْ يَنْتَهِ أَمْرُهُ بَعْدُ . »

فارِسٌ يَخْتَرِقُ الحِصارَ

ما إنْ صاحَ المَلِكُ « زُهير » صَيْحَةَ القِتالِ، حَتّى انْدَفَعَ طابورانِ مِنَ الفُرْسانِ، أَحَدُهُما يَحْمي الآخَرَ بِالدَّرَقِ وَالدُّروعِ المَرْفوعَةِ، وَالثّاني يُرْسِلُ وابلاً مِنَ السِّهامِ المُتَلاحِقَةِ عَلى مَكْمَنِ العَدُوِّ عِنْدَ الرّابِيَةِ الَّتي كَمَنَ فُرْسانُ بَني « المُصْطَلَقِ » وَراءَها .

وَارْتَفَعَتِ الصَّيْحَةُ في بَني « المُصْطَلَقِ »، وَأَسْرَعوا يُبادِلونَ المُهاجِمينَ بِسَيْلٍ مِنْ سِهامِهِمْ وَحِرابِهِمْ . وَتَحَرَّكَ بَعْضُهُمْ لِيَتَكَتَّلَ في مُواجَهَةِ المُهاجِمينَ، فانْهالَ عَلَيْهِمْ وابلٌ جَديدٌ مِنَ السِّهامِ مِنْ مَرْبِضِ الخَيْلِ، وَسَقَطَ واحِدٌ مِنْهُمْ عَرَّضَ نَفْسَهُ في حَماسِهِ - المُفاجِئ لِلسِّهامِ القاتِلَةِ . وَفي نَفْسِ الوَقْتِ انْدَفَعَ فارِسٌ فَوْقَ فَرَسِهِ وَقَدْ أَسْبَلَ

دِرْعَهُ عَلى جَسَدِهِ وَحَمَلَ سَيْفَهُ يُلَوِّحُ بِهِ إلى النّاحِيَةِ الأُخْرى في حَرَكَةٍ مُباغِتَةٍ ، وَ وَقَفَ فارسانِ يُحاوِلانِ صَدَّهُ وَمَنْعَهُ مِنَ الخُروجِ مِنَ الحِلَّةِ فَأَطاحَ بِواحِدٍ مِنْهُمْ بِسَيْفِهِ بَيْنَما وَطِئَ الآخَرَ بِجَوادِهِ، وانْدَفَعَ لا يَلْوي عَلى شَيْءٍ.

وَتَوَهَّمَ بَنو « المُصْطَلَق » أَنَّ بَني « عَبْس » يَفِرّونَ؛ فَرَكِبوا خُيولَهُمْ وَأَسْرَعوا يُهاجِمونَ الطّابورَيْنِ المُتَقَدِّمَيْنِ وَهُمْ يَتَّقونَ سِهامَ مَنْ في المَرْبَضِ بِدُروعِهِمْ وَدَرَقِهِمْ، وَلَكِنَّ الطّابورَيْنِ انْحَرَفا فَجْأَةً، وَدَخَلا بِخُيولِهِمُ الدّارَ الكَبيرَةَ الَّتي تَتَوَسَّطُ الحِلَّةَ. وَحينَ حاوَلَ بَنو « المُصْطَلَق » مُتابَعَتَهُمْ - صَدَّتْهُمْ سِهامُ الفُرْسانِ العَبْسِيِّينَ الَّذينَ كانوا في الدّارِ بِقِيادَةِ « شَدّادِ بْنِ قُراد » . وَسَقَطَ فُرْسانُهُمْ جَرْحى وَقَتْلى، وَتَهاوى أَكْثَرُ مِنْ فَرَسٍ قَتيلاً بِالسِّهامِ المُتَدافِعَةِ مِنْ جِهاتٍ ثَلاثٍ، فَتَراجَعَ بَنو « المُصْطَلَق » إلى أَماكِنِهِمْ الأولى بِسُرْعَةٍ ، لِيَعودوا إلى حِصارِ فُرْسانِ

« عَبْس » داخِلَ الحِلَّةِ، وَقَدْ نَسوا في غِمارِ المَعْرَكَةِ العَنيفَةِ أَمْرَ الفارِسِ الَّذي اخْتَرَقَ الحِصارِ، وَفَرَّ مِنَ الحِلَّةِ المُحاصَرَةِ.

وَقالَ المَلِكُ « زُهَيْر » وَهُوَ يَنْزِلُ عَنْ فَرَسِهِ، وَيُعيدُ سَهْمَهُ الَّذي كانَ في يَدِهِ إلى جِرابِهِ : « لَقَدْ نَجَحَ ‹‹ مالِك ›› في اخْتِراقِ الحِصارِ، وَما عَلَيْنا الآنَ إلا انْتِظارُ النَّجْدَةِ. »

قالَ « مالِكُ بْنُ قُراد » : « أَرْجو أَنْ تَصِلَ قَبْلَ أَنْ تَصِلَ تَعْزيزاتٌ جَديدَةٌ لِفُرْسانِ بَني ‹‹ المُصْطَلَقِ ›› . »

قالَ المَلِكُ « زُهَيْر » : « أَنا واثِقٌ في ‹‹ مالِك ›› وَحُسْنِ تَدْبيرِهِ، وَلَكِنَّ مَوْعِدَنا اللَّيْلُ، إنْ لَمْ تَصِلِ النَّجْدَةُ؛ فَكَّرْنا في وَسيلَةٍ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ هَذا الحِصارِ تَحْتَ سَتائِرِهِ. »

* * *

قالَ الأَميرُ « شاس بْنُ زُهَيْر » ، وَهُوَ يُواجِهُ فُرْسانَ

« عَبْس » الَّذينَ خَلَّصَهُمُ العَبيدُ مِنَ الأَسْرِ، وَقَدْ تجَمَّعوا في دارِهِ بَعْدَ فَكِّ أَسْرِهِمْ: « لَقَدْ كُنّا في غَفْلَةٍ وَدَفَعْنا ثَمَنَها غالِيًا، وَلَعَلَّ هَذا يَكونُ دَرْسًا لَنا، وَلَسْتُ أَعْرِفُ كَيْفَ سَأُواجِهُ أَبي المَلِكَ ‹‹ زُهَيْرًا ›› بِما حَدَثَ . »

قالَ « الرَّبيعُ » وَقَدْ ضَمَّدَ جِراحَهُ، وَعادَتْ إِلى كَلِماتِهِ لَهْجَةُ السُّخْرِيَةِ المُرَّةِ: « لَمْ يَكْفِ أَنْ نَقَعَ كالبُلَهاءِ في أَيْدي فُرْسانِ بَني ‹‹ المُصْطَلَق ››، بَلْ تُخَلِّصُنا العَبيدُ، ومَنْ مِنَ العَبيدِ ؟ ‹‹ عَنْتَرَة ›› بِالذّاتِ. هَذا شَيْءٌ مُرٌّ لا أَسْتَسيغُهُ . »

قالَ « عَمْرو بْنُ مالِك » : « لَوْ كُنْتُمْ تَرَكْتُموني لَقَتَلْتُهُ في وَسَطِ الحِلَّةِ !»

اِرْتَفَعَتْ هَمْهَمَةُ سَخَطٍ مِنَ الفُرْسانِ النّاجينَ مِنَ الأَسْرِ، لَمْ يَفُتْ مَغْزاها عَلى « شاس » فَقالَ: « هَذا كَلامٌ لا مَعْنى لَهُ ، يا ‹‹ عَمْرو ›› . »

قالَ « عَمْرو » في انْدِفاعٍ وَتَهَوُّرٍ: « لَوْ رَأَيْتَ نَظَراتِهِ إِلى

‹‹ عَبْلَة ›› وَحَديثَهُ مَعَها ، وَكَأَنَّهُ نِدٌّ لَها . وَمَنْ يَدْري ماذا سَيَقولُ في شِعْرِهِ عَنّا وَعَنْها ؟»

قالَ « عُمارَة » : « تُرى ماذا حَدَثَ لِعَبْدي ‹‹ رَيّان ›› ؟ لا بُدَّ أَنْ نَذْهَبَ لِتَخْليصِهِ . »

قالَ « الرَّبيعُ بْنُ زِياد » وَكَأَنَّما تَذَكَّرَ أَمْرًا هامّا نَسِيَهُ : « بِالفِعْلِ لا بُدَّ مِنْ تَخْليصِ ‹‹ بَسّام ›› وَمَنْ مَعَهُ مِنَ العَبيدِ المُقاتِلينَ . »

قاطَعَهُ الأَميرُ « شاسُ بْنُ زُهَيْر » قائِلاً : « بَلْ لا بُدَّ مِنَ الإسْراعِ إلى نَجْدَةِ المَلِكِ ‹‹ زُهَيْر ›› في دِيارِ بَني ‹‹ المُصْطَلَقِ ›› ، فَهُوَ هُناكَ في كَمينٍ وَيَحْتاجُ كُلَّ فارِسٍ فينا وَكُلَّ سَيْفٍ . »

قالَ « الرَّبيع » مُؤَمِّنًا : « هَذا صَحيحٌ ، وَلِهَذا نَخْرُجُ إلى ا راعي أوَّلا لِنَأْخُذَ مَعَنا ‹‹ بَسّام ›› وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الـ بيدِ ، فَسَنَحْتاجُهُمْ لا شَكَّ في مَعْرَكَتِنا الفاصِلَةِ مَعَ

بَني ‹‹ المُصْطَلَقِ ››. »

ارْتَفَعَتْ صَيْحَةٌ انْتَبَهَ إلَيْها الجَميعُ، وَأَسْرَعَ « عُمارَةُ بْنُ زياد » يَقْتَحِمُ القاعَةَ صارِخًا: « العَبيدُ مَعَ ‹‹ عَنْتَرَة ›› يَرْكَبونَ الجِيادَ وَيَتَجَمَّعونَ عِنْدَ الغَديرِ. »

قالَ « الرَّبيعُ بْنُ زياد »: « نَسينا أَمْرَ ‹‹ عَنْتَرَة ›› وَمَنْ مَعَهُ مِنَ العَبيدِ، وَلَمْ نُقَرِّرْ ماذا نَفْعَلُ بِأَمْرِهِمْ ؟»

ضَحِكَ « عَمّارُ بنُ زَيْد » وَكانَ مِنْ ساداتِ بَني زيادٍ، وَقالَ: « مَنِ الَّذي يُقَرِّرُ ماذا يَفْعَلُ بِشَأْنِ الآخَرِ، يا ‹‹ رَبيع ›› ؟ إنَّهُمُ المُنْتَصِرونَ، وَهُمُ الَّذينَ خَلَّصونا مِنَ الأَسْرِ، وَهُمُ الآنَ يَرْكَبونَ كالفُرْسانِ، وَيَحْمِلونَ السِّلاحَ كالفُرْسانِ، وَيُقَرِّرونَ الذَّهابَ إلى نَجْدَةِ المَلِكِ ‹‹ زُهَيْر ›› لِيَكْمُلَ فَضْلُهُمْ عَلى القَبيلَةِ. »

قالَ « شاسُ بْنُ زُهَيْر » في غَضَبٍ: « أنا الَّذي أُقَرِّرُ هُنا ما يَفْعَلُهُ كُلُّ فَرْدٍ في بَني ‹‹ عَبْس ››. هَذا لا يَجوزُ

أَبدًا، وَلَنْ أَسْمَحَ بِهِ. أَسْرِعوا بِنا نَرْكَبُ إلى الغَديرِ، لِنَرى أَمْرَنا مَعَ هَؤُلاءِ العَبيدِ.»

صاحَ «عَمْرو بْنُ مالِك» في حَنَق: «أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ؟ دَخَلَ النَّصْرُ في رَأْسِ هَذا العَبْدِ فَنَسِيَ نَفْسَهُ.»

قالَ «الرَّبيع» في حَزْمٍ: «سَنُعيدُهُ إلى حَجْمِهِ لِيَعْرِفَ نَفْسَهُ.»

وَانْطَلَقَ الجَميعُ مِنَ الدّارِ، يَرْكَبونَ خُيولَهُمْ، وَيَحْمِلونَ سِلاحَهُمْ وَعُدَّتَهُمْ نَحْوَ الغَديرِ.

لِقاءُ الفُرْسانِ

كانَ « مالِكُ بْنُ زُهَيْر » يُسابِقُ الرّيحَ بِفَرَسِهِ، مُنْذُ أَنْ غادَرَ حِلَّةَ بَني « المُصْطَلَقِ ». أَغْمَدَ سَيْفَهُ في غِمْدِهِ، وَانْكَبَّ بِرَأْسِهِ عَلى عُنُقِ جَوادِهِ، وَضَرَبَ بِكَعْبَيْهِ في جَنْبَيْهِ لِيَحُثَّهُ عَلى إعْطاءِ أَقْصى سُرْعَةٍ عِنْدَهُ ، وكان الجَوادُ

عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ راكِبِهِ، أَوْ كَأَنَّهُ أَحَسَّ بِخُطورَةِ المُهِمَّةِ الَّتي يَذْهَبانِ مَعًا إلَيْها، فَانْطَلَقَ يَقْطَعُ المَسافاتِ قَطْعًا.

وَلَمْ يَكُنْ « مالِك » يُحِسُّ بِلَفْحِ الرِّيحِ لِوَجْهِهِ، وَلا بِالْغُبارِ المُتَصاعِدِ مِنْ سَنابِكِ جَوادِهِ، فَقَطْ كانَ يُفَكِّرُ في أَمْرِ الفُرْسانِ المُحاصَرينَ، وَكَيْفَ يُمْكِنُهُ أَنْ يُحْضِرَ لَهُمُ النَّجْدَةَ قَبْلَ أَنْ يَقوموا بِمُغامَرَةٍ مَحْفوفَةٍ بِالمَخاطِرِ عِنْدَما يَحُلُّ اللَّيْلُ.

كانَ « مالِك » يَعْرِفُ الطَّريقَ جَيِّدًا، فَقَدْ قَطَعَهُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ في رِحْلاتِ الصَّيْدِ، وَفي الغَزَواتِ خُروجًا مِنْ دِيارِ « عَبْس » وَعَوْدَةً إلَيْها بِالْغَنائِمِ وَالانْتِصاراتِ.

وَعَضَّ « مالِك » عَلى شَفَتَيْهِ في حَنَقٍ، فاليَوْمُ يَجْري بَحْثًا عَنْ رَدٍّ لِهَزيمَةٍ قاسِيَةٍ، وَخُروجًا مِنْ كَمينٍ خَبيثٍ. وَبَدَأَتِ المَخاوِفُ تَنْتابُهُ فَماذا لَوْ كانَ بَنو « المُصْطَلَق » قَدْ أَحْكَموا خُطَّتَهُمْ واسْتَوْلَوْا عَلى الدِّيارِ وأَسَروا الفُرْسانَ

الَّذينَ فيها، أَوْ قَتَلوهُمْ، لَوْ حَدَثَ هَذا لكانَتْ كارِثَةً. وَلَكِنْ هُناكَ « عَنْتَرَة »، فَإِنَّ « عَنْتَرَة » يَسْتَطيعُ أَنْ يُحيلَ عَبيدَ المَراعي إلى جَيْشٍ مُقاتِلٍ مُخيفٍ، لَوْ حَدَثَ هَذا لَقَصَدَ إِلَيْهِ لِيَرْكَبَ مَعَهُ لِنُصْرَةِ المَلِكِ « زُهَيْر » .

وَدونَ أَنْ يُحِسَّ غَيَّرَ مِنِ اتِّجاهِ جَوادِهِ إلى ناحِيَةِ المَرْعى، فَعَلى كُلِّ حالٍ هُوَ مُحْتاجٌ الآنَ إلى شَجاعَةِ « عَنْتَرَة » وَفُروسِيَّتِهِ، فَلْيَصْحَبْهُ مَعَهُ إلى الدِّيارِ، فَإِنْ كانَ كُلُّ شَيْءٍ هادِئًا ضَمَّهُ إلى الفُرسانِ الَّذينَ سَيَعودُ بِهِمْ إلى دِيارِ بَني « المُصْطَلَق »، وَإِلا كانَ عَوْنًا لَهُ عَلى تَخْليصِ الحِلَّةِ مِنْ أَسْرِها إِنْ كانَ الأَمْرُ قَدْ وَقَعَ عَلى غَيْرِ ما يَتَمَنّى .

وَهَمَسَ « مالِك » لِجَوادِهِ: « إلى ‹‹ عَنْتَرَة ›› ، أَيُّها الجَوادُ، إلى ‹‹ عَنْتَرَة ›› . وانْطَلَقَ الجَوادُ حامِلاً الفارِسَ نَحْوَ مَرْعى بَني « عَبْس » .

* * *

كانَتْ « زَبيبَة » تَضُمُّ « عَبْلَة » إلى صَدْرِها وتُرَبِّتُ عَلى شَعْرِها في حَنانٍ وَهِيَ تَقولُ:

« حَمْدًا للهِ عَلى سَلامَتِكِ مِنْ كُلِّ شَرٍّ ، يا ابْنَتي. لَقَدْ جِئْتِ تُحَذِّرينَني مِنْ شَرٍّ يُبَيَّتُ لِـ ‹‹ عَنْتَرَة ›› ، فَإذا بِـ ‹‹ عَنْتَرَة ›› يُنْقِذُكِ وَيُنْقِذُنا مِنْ شَرٍّ بَيَّتَهُ الأَعْداءُ لَنا. »

كانَتْ عَيْنا « عُبْلَة » تَتَنَدَّيانِ بِالدُّموعِ وَهيَ تَدْفِنُ رَأْسَها في صَدْرِ « زَبيبَة »، وَتَقولُ:

« لَكَمْ كُنْتُ أَخافُ عَلَيْهِ ، يا خالَةُ وَهُوَ يَرْمي بِنَفْسِهِ أَمامَ الرِّماحِ وَالسُّيوفِ، كَأَنَّهُ لا يُبالي عاشَ أَوْ ماتَ. كَمْ كانَ رائِعًا وَهُوَ يَضْرِبُ بِسَيْفِهِ، وَيَقْذِفُ بِرُمْحِهِ، تارَةً فَوْقَ جَوادِهِ يُهاجِمُ مُسْتَبْسِلاً، وَطَوْرًا وَهُوَ يَقْفِزُ مِنْهُ إلى ظَهْرِ جَوادٍ آخَرَ يَرْمي بِراكِبِهِ عَلى الأَرْضِ. كُنْتُ أَخافُ عَلَيْهِ ، يا خالَةُ، وَكانَ قَلْبي يَهْتَزُّ رُعْبًا كُلَّما رَأَيْتُ سَيْفًا يُوَجَّهُ نَحْوَهُ، أَوْ رُمْحًا قَصَدَ صَدْرَهُ. »

تَنَدَّتْ عَيْنا « زَبِيبَة » بِالدُّموعِ وهِيَ تُقَبِّلُ رَأْسَ « عَبْلَة » ، ثُمَّ رَفَعَتْ وَجْهَ « عَبْلَة » إِلَيْها وَنَظَرَتْ في مَلامِحِها الصَّبوحَةِ، فَابْتَسَمَتْ في إِشْراقٍ وَسَطَ دُموعِها. وَابْتَسَمَتْ « عَبْلَة » لابْتِسامَتِها وَقالَتْ لَها: « لِماذا تَبْتَسِمينَ ، يا خالَةُ ؟»

قالَت « زَبِيبَة » وَهِيَ تَضْحَكُ في سَعادَةٍ : « لأَنّي أَعْرِفُ أَنَّ كَلِماتِكِ هَذِهِ هِيَ خَيْرُ جَزاءٍ يُريدُهُ ‹‹ عَنْتَرَة ›› ، وَلأَنّي أعْرِفُ أَيْضًا أَنَّ إحْساسَكِ هَذا سَيَجْعَلُ ‹‹ عَنْتَرَة ›› يَسيرُ في طَريقِهِ إِلى أَنْ يَنْتَصِرَ . »

قَطَّبَتْ « عَبْلَة » جَبِينَها وَهيَ تَسْأَلُ : « كَيْفَ ، يا خالَةُ ؟»

قالَتْ « زَبِيبَة » ، وَهِيَ تَعودُ فَتَضُمُّها إِلى صَدْرِها مِنْ جَديدٍ : « لا خابَ رَجُلٌ وَراءَهُ مَنْ تُؤْمِنُ بِهِ وَتُساعِدُهُ ، وَتَثِقُ في إخْلاصِهِ وَبَسالَتِهِ . »

ثُمَّ أَبْعَدَتْها عَنْها تَتَأَمَّلُها قَليلاً ، وَعادَتْ عَيْناها

تُغْرَوْرقانِ بِالدُّموعِ وَهِيَ تَقولُ : « لَقَدْ كَبِرْتِ ، يا ‹‹ عَبْلَة ›› دونَ أَنْ أُحِسَّ، وَأَصْبَحْتِ صَبِيَّةً واعِدَةً بِشابَّةٍ تَتَدَفَّقُ جَمالاً وَأُنوثَةً . »

وَتَنَهَّدَتْ وَهِيَ تَقولُ: « وَاليَوْمَ عَرَفْتُ أَنَّ ‹‹ عَنْتَرَة ›› قَدْ كَبِرَ، وَأَنَّ الصَّبِيَّ قَدْ شَبَّ عَنِ الطَّوْقِ وَغَدا فَتًى يافِعًا مَليئًا بِالشَّجاعَةِ وَالقُوَّةِ وَالأَمَلِ . »

وَلا تَعْرِفُ « عَبْلَة » كَيْفَ فَعَلَتْ هَذا ، فَقَطْ ضَمَّتْ « زَبيبَة » إلى صَدْرِها وَقَبَّلَتْها وَهِيَ تَبْكي وَتُحِسُّ بِقَلْبِها يَخْتَلِجُ بَيْنَ جَنْبَيْها .

* * *

أَمْسَكَ « عَنْتَرَة » بِمِقْوَدِ الفَرَسِ في يَدِهِ بِقُوَّةٍ، وَأَخَذَ يَنْكُتُ الأَرْضَ بِرُمْحِهِ، وَهُوَ يَتَطَلَّعُ إلى وُجوهِ الرِّجالِ المُتَحَلِّقينَ حَوْلَه وَيَقولُ: « اِسْتَرَحْنا وَارْتاحَتِ الخُيولُ ، وَأَكَلَ كُلٌّ مِنّا كِفايَتَهُ، وَبَقِيَ أَمامَنا أَمْرٌ شاقٌّ، مَنْ أَرادَ

مِنْكُمْ أَنْ يُحْجِمَ عَنْهُ فَلا لَوْمَ عَلَيْهِ ، فَلَسْتُمْ مِن الْمُقاتِلينَ ، إِنَّما أَنْتُمْ رُعاةٌ . »

صاحَ « شَيْبوب » : « هَؤُلاءِ الرُّعاةُ هَزَموا فُرْسانَ بَني «« الْمُصْطَلَقِ »» الْيَوْمَ مَرَّتَيْنِ ، وَجَعَلوا مِنْهُمْ سُخْرِيَةً . »

وَضَحِكَ « زاهِر » لِتَلْمَعَ أَسْنانُهُ النّاصِعَةُ في وَجْهِهِ وَقالَ :

« لَقَدِ اكْتَشَفْنا أَنَّهُمْ رِجالٌ مِثْلُنا ، أَوْ أَنّنا رِجالٌ مِثْلُهُمْ ، نَسْتَطيعُ لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَقْهَرَهُمْ . »

وَقالَ « جَرير » : « اُنْظُرْ إلى الرِّجالِ حَوْلَكَ ، يا «« عَنْتَرَة »» ، لا أَحَدَ يُريدُ أَنْ يَعودَ إلى الْمَراعي ، فَهَيّا قُدْنا إلى دِيارِ بَني «« الْمُصْطَلَقِ »» لِنَنجد الْمَلِكَ «« زُهَيْرًا »» . »

قَبْلَ أَنْ يُجيبَهُ « عَنْتَرَة » ، قالَ « شَيْبوب » :

« خَيْلٌ قادِمَةٌ . هَذِهِ فُرْسانُ «« عَبْس »» تَخْرُجُ إلى

المَعْرَكَةِ . »

وَكانَ الأَميرُ « شاسُ بْنُ زُهَيْر » عَلى رَأْسِ الفُرْسانِ قَدْ وَصَلَ إلى الغَديرِ، فَأفْسَحَ العَبيدُ لَهُ مَكانًا وَهُوَ يَرْكَبُ فَرَسَهُ إلى حَيْثُ وَقَفَ « عَنْتَرَة »، وَصَمَتَ الجَميعُ وَعُيونُهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ بِابْنِ المَلِكِ « زُهَيْر » ، الَّذي قالَ لِـ « عَنْتَرَة » :

« أَحْبَبْتُ أَنْ أُزجِيَ لَكَ الشُّكْرَ عَلى ما فَعَلْتَهُ أَنْتَ وَهَؤُلاءِ . . . »

وَأَدارَ بَصَرَهُ فيهِمْ ثُمَّ عادَ يَقولُ في ازْدِراءٍ : « العَبيدُ . الآنَ اتْرُكوا هَذِهِ الخَيْلَ، واخْلَعوا الأَسْلِحَةَ وَعودوا إلى المَراعي . »

قالَ « عَنْتَرَة » وَقَدْ أَحَسَّ بِغَضْبَةٍ تَتَجَمَّعُ في صَدْرِهِ : « لَقَدْ قُمْنا بِما قُمْنا بِهِ حِمايَةً لِلنِّساءِ وَالصِّغارِ وَالعَجائِزِ، وَكُنْتُمْ بِالصُّدْفَةِ مُقَيَّدينَ بِالأَوْتادِ فَرَفَعْنا قُيودَكُمْ . »

وَقالَ « شَيْبوب » في سُخْرِيَةٍ:

« أَيَّةُ مَراعٍ ؟ أَلَمْ نَسْمَعْ جَميعًا ما قالَهُ أَسْرى بَني ‹‹ المُصْطَلَقِ ›› ؟ هِيَ خالِيَةٌ مِنَ المالِ الَّذي يَسوقُهُ الفُرْسانُ الباقونَ مِنْ بَني ‹‹ المُصْطَلَقِ ›› الآنَ إلى مَراعيهِمْ هُمْ . »

صاحَ « شاس » في شَراسَةٍ:

« سَنَذْهَبُ لِنَسْتَعيدَ المالَ وَنُحَرِّرَ ‹‹ بَسّام ›› وَمَنْ مَعَهُ . أَمّا أَنْتُمْ فاخْلَعوا هَذِهِ الدُّروعَ، وارْموا هَذِهِ السُّيوفَ وَالرِّماحَ، وَعودوا إلى مَراعيكُمْ . »

قالَ « عَنْتَرَة » : « سَنَذْهَبُ لِنَجْدَةِ المَلِكِ ‹‹ زُهَيْر ››، فَلا شَكَّ أَنَّهُ في ضيق . »

صاحَ « شاس » : « اتْرُكْ هَذا الأَمْرَ لِلْفُرْسانِ . »

وَسَرَتْ بَيْنَ العَبيدِ هَمْهَمَةٌ غاضِبَةٌ، وَامْتَلأَتِ الوُجوهُ بِحِقْدٍ دَفينٍ، وَامْتَدَّتْ أَكْثَرُ مِنْ يَدٍ إلى مَقابِضِ السُّيوفِ،

وَأَدارَ « الرَّبيع » نَظَرَهُ فيما حَوْلَهُ؛ فَأَدْرَكَ أَنَّ المَسْأَلَةَ لَيْسَتْ بِالسُّهولَةِ الَّتي تَصَوَّروها مِنْ قَبْلُ، فَدَفَعَ فَرَسَهَ إلى أَنْ حاذى « شاس » وَقالَ:

« لَقَدْ لَعِبَ الانْتِصارُ الَّذي أَحْرَزوهُ بِالصُّدْفَةِ وَبِغَفْلَةِ رِجالِ بَني ‹‹ المُصْطَلَق ›› بِعُقولِهِمْ. اُتْرُكْهُمُ الآنَ أَيُّها الأَميرُ، فَأَمامَنا مَهامٌّ كَثيرَةٌ، وَحينَ نَعودُ سَنَعْرِفُ كَيْفَ نُؤَدِّبُهُم. »

ما إنْ غادَرَتْ هَذِهِ الكَلِماتُ شَفَتَيْهِ حَتّى انْبَعَثَتْ صَيْحَةٌ جَديدَةٌ مِنْ ناحِيَةِ المَراعي، فالْتَفَتَ الجَميعُ ناحِيَةَ الصَّوْتِ، فَإذا بِكَوْكَبَةٍ مِنْ عَبيدِ « زياد » يَسوقُها الأَميرُ « مالِكُ بْنُ زُهَيْر » أَمامَهُ، وَهُوَ راكِبٌ فَوْقَ جَوادٍ مُجْهَدٍ، وَالعَبيدُ تَجْري أَمامَهُ نَحْوَ الغَدير.

وَصاحَ « شاس » : « هَذا أَخي ‹‹ مالِك ››. إذَنْ أَبي بِخَيْرٍ. »

وَصاحَ « الرَّبيع » : « هَذا عَبْدي ‹‹ بَسّام ›› وَمَعَهُ عَبيدُ بَني زِيادٍ، فالمالُ في خَيْرٍ . »

هَمَسَ « عَمْرو بْنُ مالِك » : « أَيْنَ خُيولُهُمْ ؟ لَقَدْ خَرَجوا راكِبينَ، وَ ‹‹ مالِك ›› غاضِبٌ، وَهُوَ يَسوقُهُمْ سَوْقَ الخائِفينَ . »

قالَ « عُمارَة » : « إِنَّهُمْ مُثْخَنون بِالجِراحِ، وَلا يَكادونَ يَقْوُونَ عَلى الجَرْيِ . »

وَقَفَزَ « عَنْتَرَة » إلى جَوادِهِ وانْدَفَعَ بِهِ ناحِيَةَ الأَميرِ « مالِك »، وَتَبِعَهُ « شَيْبوب » و « جَرير » وَ « زاهِر » وَباقي عَبيد « عَبْس » فَوْقَ خُيولِهِمْ. وَصاحَ « شاس »، وَصَرَخَ « الرَّبيع »، وَلَكِنَّهُمْ تَرَكوهُمْ وَراءَهُمْ نَحْوَ الفارِسِ القادِمِ، فَلَمْ يَجِدِ الآخَرونَ بُدًّا مِنْ أَنْ يَهْمِزوا خُيولَهُمْ وَيَتْبَعوهُمْ صاغِرينَ.

وَحينَ وَصَلوا إلى حَيْثُ وَقَفَ الأميرُ « مالِك » وَتَرَجَّلَ « عَنْتَرَة » عَنْ جَوادِهِ - سَمِعوا « مالِك » يَقولُ:

« أَسْرِعْ ، يا ‹‹ عَنْتَرَة ›› . مِنْ حُسْنِ الحَظِّ أَنَّكَ سَلَّحْتَ هَؤُلاءِ الرِّجالَ، لِيُغَيِّرَ لي أَحَدُهُمْ فَرَسي بِفَرَسٍ مُسْتَريحَةٍ، وَلْتُسْرِعوا مَعي جَميعًا . »

صاح « شاس » في دهشة وغضب :

« ما هَذا ، يا أَخي ؟ كَيْفَ تَرَكَبُ مَعَ العَبيدِ ؟ »

اِلْتَفَتَ إِلَيْهِ « مالِك » وَصاحَ في حَنَقٍ:

« لَيْسَ هَذا وَقْتَ عَبيدٍ أَوْ غَيْرِ عَبيدٍ، إنَّ أَباكَ وَرِجالَ ‹‹ عَبْس ›› كُلَّهُمْ في خَطَرِ المَوْتِ. اِتْبَعْني وَمَنْ مَعَكَ مِنَ الرِّجالِ، أَمّا أَنا فَيَكْفيني ‹‹ عَنْتَرَة ›› وَرِجالُهُ . »

صاحَ « الرَّبيع » في غَيْظٍ:

« رِجالُهُ ! ما هُوَ إلا عَبْدٌ أَسْوَدُ لا قيمَةَ لَهُ، وَكُلُّهُمْ عَبيدٌ. »

صاحَ « مالِك » في ضيقٍ:

« اُسْكُتْ ، يا ‹‹ ربيع ›› وَمُرْ عَبيدَكَ هَؤُلاءِ أَنْ يَتْبَعونا لِنُسَلِّمَهُمُ المالَ بَعْدَ اسْتِرْدادِهِ ، أَمّا الباقونَ فَلْيَتْبَعوني إلى حِلَّةِ بَني ‹‹ المُصْطَلَق ››. »

وَلَمْ يَنْتَظِرْ لِيَسْمَعَ رَدًّا، بَلْ قَفَزَ فَوْقَ الجَوادِ الجَديدِ الَّذي ساقَهُ إلَيْهِ « زاهِر » وَضَرَبَ مِهْمازَهُ في بَطْنِ الجَوادِ، وَلَوى عُنُقَهُ عائِدًا وَأَسْرَعَ بِهِ، وَقَفَزَ « عَنْتَرَة » إلى جَوادِهِ، وَلَوَّحَ إلى باقي الرِّجالِ، وَأَسْرَعَ يَلْحَقُ بِهِ وَالآخَرونَ يَتْبَعونَهُ.

وَنَظَرَ « شاس » إلى « الرَّبيع » ، وَنَظَرَ «الرَّبيع » إلى « عُمارَة » ، وَقالَ « عَمْرو بْنُ مالِك » :

« لَنْ نَتَخَلَّفَ عَنْهُمْ أيا كانَ السَّبَبُ، فَأَبي مَعَ المَلِكِ

‹‹ زُهَيْر ›› . »

ثُمَّ حَثَّ جَوادَهُ وَأَسْرَعَ وَراءَهُمْ. وَلَمْ يَلْبَثِ الآخَرونَ أَنْ تَبِعوهُ.

الأميرُ « مالِك »

لَمْ يُكَلِّفْهُمُ اسْتِرْدادُ المالِ أَيَّ مَشَقَّةٍ، فَلَمْ تَدُرْ في الحَقيقَةِ أَيَّةُ مَعْرَكَةٍ . وما إنْ رَأى الفُرْسانُ القَليلونَ مِنْ بَني « المُصْطَلَق » الجَمْعَ الحاشِدَ الَّذي يَتَّجهُ نَحْوَهُمْ صارِخًا بِنِداءاتِ الثَّأْرِ وَالقِتال - حَتّى تَرَكوا ما يَحْرُسونَهُ مِنْ خَيْلٍ وَإبِلٍ وَأَبْقارٍ وَأَغْنامٍ، وَ وَلَّوُا الفِرارَ تارِكينَ وَراءَهُمْ غَبَرَةً وَعَفْرَةً .

لَمْ يَتَوَقَّفْ « مالِك » لِيَنْظُرَ إلى الخَيْلِ الَّتي تَفَرَّقَتْ في كُلِّ ناحِيَةٍ، بَلْ صاحَ بِـ « الرَّبيع » :

« يا ‹‹ رَبيع ››، اتْرُكْ ‹‹ بَسّامًا ›› وَمَنْ مَعَهُ مِنْ عَبيدِكَ لِيَقودوا الرَّعْيَ عائِدينَ إلى مَراعينا . وَالباقي، اِتْبَعوني . »

وَعادَ يَنْكَبُّ عَلى عُنُقِ فَرَسِهِ يَدْفَعُهُ بِكَعْبِهِ وَيَنْطَلِقُ بِهِ

إلى أَمامٍ وَخَلْفَهُ « عَنْتَرَة » وَفُرْسانُهُ، وَمِن بَعْدِهِمْ يَأْتي الأَميرُ « شاس » وَمَنْ مَعَهُ مِنْ فُرْسانِ « عَبْس ».

وَصاحَ « الرَّبيع »: « سَمِعْتَ ، يا ‹‹ بَسّام ›› ؟ خُذِ العَبيدَ وَاذْهَبْ. أَعِدْ هَذِهِ الأَمْوالَ إلى مَراعينا. »

ثُمَّ عادَ يَلْحَقُ بِالفُرْسانِ الَّذينَ سَبَقوهُ ، بَيْنَما انْفَصَلَ « بَسّام » وَ « رَيّان » وَ « بَكْر » وَمَنْ مَعَهُمْ مِنْ عَبيدِ بَني « زياد »، لِيُحاولوا جَمْعَ الأَغْنامِ الَّتي تَفَرَّقَتْ وَالعَوْدَةَ بِها في بُطْءٍ إلى المَراعي.

وَلَحِقَ « الرَّبيع » وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الفُرْسانِ ، وَقالَ لـ « عُمارَة » في حَنَقٍ :

« ما زالَ نَجْمُ هَذا العَبْدِ ‹‹ عَنْتَرَة ›› في صُعودٍ . هُوَ يَسيرُ مَعَنا وَعَبْدي ‹‹ بَسّام ›› - وَهُوَ يَفْضُلُهُ أَلْفَ مَرَّةٍ - يَعودُ إلى المَراعي مِنْ جَديدٍ. »

قالَ « عُمارَة »: « لَقَدْ تَعِبْتُ في تَدْريبِ ‹‹ رَيّان ››

عَلى الحَرْبِ، وَغَدا هُوَ وَالَمجْموعَةُ الَّتي مَعَهُ مِنْ أَمْهَرِ مَنْ يَسْتَعْمِلونَ السَّيْفَ. »

ضَحِكَ « عَمْرو بْنُ مالِك » وَهُوَ يَقولُ: « أمّا عَبْدي ‹‹ زاهِر ›› الَّذي حَمَلَني فَوْقَ أَكْتافِهِ، وَكانَ يُطيعُني طاعَةً كامِلَةً، يَرْكَبُ الآنَ كالفُرْسانِ المَغاويرِ إلى جِوارِ ‹‹ عَنْتَرَة ›› . »

وَفي المُقَدِّمَةِ كانَ الأَميرُ « مالِكُ بْنُ زُهَيْر » يَقولُ لِـ « عَنْتَرَة » :

« أَلْمَحُ آثارَ مَعْرَكَةٍ، فاحْكِ لي ما حَدَثَ، كَيْفَ لَمْ أَجِدْكَ في المَراعي حينَ وَصَلْتُ إلَيْها ؟»

حَكى لَهُ « عَنْتَرَة بْنُ شَدّاد » الأَمْرَ مِنْ أَوَّلِهِ، مِنْ تَحْذيرِ « زَبيبَة » لَهُ ، ثُمَّ انْتِصارِهِ عَلى فُرْسانِ بَني « المُصْطَلَق »، الَّذينَ كانوا يُطارِدونَ نِساءَ « عَبْسٍ » الفارّاتِ، إلى هُجومِهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ عَبيدِ « قُراد » وَبَعْضِ

عَبيدِ « عَبْس » عَلى الحِلَّةِ، واسْتِنْقاذِها مِنْ أَيْدي الغُزاةِ، وَإِطْلاقِهِ سَراحَ سادَةِ « عَبْس » وَ « زياد » مِنَ الأَسْرِ. . إلى أنْ جَمَعَ مَنْ مَعَهُ مِنْ عَبيدٍ مُسَلَّحينَ لِلَّحاقِ بالمَلِكِ « زُهَيْر »، وَكَيْفَ اعْتَرَضَهُمُ الأَميرُ « شاس » وَ « الرَّبيعُ ابْنُ زياد »، وَلَوْلا وُصولُ الأَميرِ « مالِك » لَوَصَلَ الأَمْرُ إلى نُقْطَةٍ لا يَعْرِفُ أَحَدٌ ما بَعْدَها.

وَكانَ الأَميرُ « مالِكُ بْنُ زُهَيْر » يَسْمَعُ لِـ « عَنْتَرَة » في إِصْغاءٍ، وَهُوَ بَيْنَ الحينِ وَالحينِ يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ مِنْ فَوْقِ جَوادِهِ، يَتَأَمَّلُ مَلامِحَ وَجْهِهِ الوَسيمِ، وَهُوَ يَنْتَقِلُ مِنْ جُزْءٍ مِنَ القِصَّةِ إلى جُزْءٍ. وَحينَ انْتَهى « عَنْتَرَة » مِنْ حَديثِهِ، ضَحِكَ الأَميرُ « مالِك » وَقالَ وَهُوَ يَلْكُزُ جَوادَهُ لِيَزيدَ مِنْ سُرْعَتِهِ:

« إِنَّ لَكَ لَفَصاحَةً ، يا ‹‹ عَنْتَرَة ›› وَحُسْنَ بَيان. وَيَوْمًا سَنَجْلِسُ مَعًا لِتُسْمِعَني شِعْرَكَ الَّذي سَمِعْتُ أَنَّهُ سَرى مَسْرى النّارِ في الهَشيمِ عَلى أَلْسِنَةِ شَبابِ ‹‹ عَبْس ››

وَفِتْيانِها ، بَلْ وَفَتَياتِها أَيْضًا . »

أطْرَقَ « عَنْتَرَة » وَلَمْ يُجِبْ ، وَهُوَ يَلْكُزُ فَرَسَهُ لِيَظَلَّ مُجاوِرًا لِفَرَسِ الأَميرِ « مالِك » ، بَيْنَما عادَ الأَميرُ « مالِك » يَقول :

« إِنَّها كَلِماتُكَ هَذِهِ هِيَ الَّتي أَثارَتْ عَلَيْكَ ثائِرَةَ قَوْمِكَ مِنْ ‹‹ عَبْس ›› ؛ فَأَرادوا قَتْلَكَ . وَقَدِ اعْتَرَفَ لي ‹‹ بَسّام ›› حينَ ـَـكْتُ قُيودَهُ بِكُلِّ شَيءٍ ، فَهُمْ يُرَحِّبونَ بِسَيْفِكَ وَلَكِنَّهُمْ يَكْرَهونَ كَلِماتِكَ . وَلَكِنَّكَ يا فَتًى تَحْفِرُ لِنَفْسِكَ طَريقَ التَّحَرُّرِ وَالْمُساواةِ بِفُروسِيَّتِكَ وَكَلِـ ـاتِكَ عَلى السَّواءِ . فَإِنَّ الشَّاعِرَ عِنْدَنا يَفوقُ في مَكانِهِ مَكانَ الفارِسِ . »

وَتَوَقَّفَ الأَميرُ « مالِك » عَنِ الحَديثِ فَجْأَةً ، وَ وَقَفَ بِجَوادِهِ وَهُوَ يَرْفَعُ يَدَهُ لِتَتَراجَعَ الخُيولُ خَلْفَهُ وَهِيَ تُحاوِلُ الوُقوفَ دونَ أَنْ يَصْطَدِمَ بَعْضُها بِبَعْضٍ ، وَقالَ :

« أَوْشَكَتِ الشَّمْسُ عَلى المَغيبِ ، وَها هِيَ حِلَّةُ بَني «« المُصْطَلَقِ »» أَمامَنا، وَقَدْ سَبَقَنا الفُرْسانُ الهارِبونَ وَحَذَّروا القَوْمَ مِنْ وُجودِنا، فَلا وَقْتَ للانْتِظارِ وَلا أَمَلَ في السِّرِّيَّةِ. »

وَأَجالَ نَظَرَهُ في الرِّجالِ مِنْ حَوْلِهِ، وَكانَتِ الوُجوهُ مَشْدودَةً في تَرَقُّبٍ، وَالعُيونُ تَلْمَعُ في تَحَفُّزٍ، فَقالَ وَهُوَ يَرْسُمُ لَهُمْ خُطَّةَ القِتالِ:

« تَدورُ أَيُّها الأَميرُ «« شاس »» بِمَنْ مَعَكَ مِنَ الفُرْسانِ في شِبْهِ قَوْسٍ، وَتُهاجِمونَ الفُرْسانَ الكامِنينَ حَوْلَ الحِلَّةِ وَأَنْتُمْ تُطْلِقونَ الصَّيْحاتِ، وَتُمْطِرونَهُمْ بِوابِلٍ مِنَ السِّهامِ، حَتّى إذا ما اقْتَرَبْتُمْ مِنْهُمُ اسْتَدَرْتُمْ وَعُدْتُمْ مَرَّةً أُخْرى بَعيداً عَنْ رَمْيِ سِهامِهِمْ ، ثُمَّ تَكُرّونَ عَلَيْهِمْ مِن جَديدٍ، حَتّى يَلْتَفِتوا إِلَيْكُمْ بِكُلِّ قُوَّتِهِمْ .

وَفي هُجومِكُمُ الثّالِثِ ، سَأَهْجُمُ أَنا وَمَعي «« عَنْتَرَة »»

وَرِجالُهُ لِنَخْتَرِقَ الرَّبْوَةَ في هُجومٍ لا يَتَوَقَّفُ، فَنَخْتَرِقَ تَجَمُّعَهُمْ إذْ يَحْسَبونَ أَنَّنا سَنَفِرُّ كَما تَفْعَلونَ، فَإذا ما كُنّا داخِلَ الحِلَّةِ، تَجَمَّعوا وَاهْجُموا خَلْفَنا مِنَ الثُّغْرَةِ الَّتي نَكونُ قَدْ فَتَحْناها لَكُمْ. وَالآنَ هَيّا، فَلا وَقت هُناكَ.»

وَأَشارَ بِيَدِهِ فَتَبِعَهُ «عَنْتَرَة» وَالفُرْسانُ في تَجَمُّعٍ مُتَلاصِقٍ، بَعيدًا عَنِ الفُرْسانِ الآخَرينَ الَّذينَ أَشارَ إِلَيْهِمُ الأَميرُ «شاس»، فَأَخَذَ «الرَّبيع» المَيْمَنَةَ، وَأَخَذَ «عُمارَة» وَمَعَهُ «عَمْرو بْنُ مالِك» المَيْسَرَةَ، وَمَعَ كُلٍّ مِنْهُمْ نِصْفُ فُرْسانِ «عَبْس».

وَسَرْعانَ ما تَكَوَّنَتْ نِصْفُ دائِرَةٍ تُحيطُ بِالحِلَّةِ. وَصاحَ الأَميرُ «شاس» وَانْدَفَعَ مُطْلِقًا السِّهامَ مِنْ قَوْسِهِ مُتَتالِياتٍ، وَ وَراءَهُ الفُرْسانُ، وَإِلى كُلٍّ مِنْ جانِبَيْهِ انْدَفَعَتِ الفُرْسانُ تُطْلِقُ السِّهامَ. وَارْتَفَعَتْ صَيْحَةٌ في حِلَّةِ بَني «المُصْطَلَق»، وَظَهَرَ الفُرْسانُ المُدافِعونَ يُبادِلونَهُمْ رَمْيَ السِّهامِ، وَيَمْتَشِقونَ سُيوفَهُم اسْتِعْدادًا لِصَدِّ الغَزْوَةِ

المُرْتَقَبَةِ، حتى إذا ما اقْتَرَبَ العَبْسِيّونَ مِنَ المُدافِعينَ، رَمَوْا عَلَيْهِمْ حِرابَهُمْ وَعادوا مِنْ جَديدٍ يَتَراجَعونَ.

وَصاحَ فُرْسانُ بَني « المُصْطَلَقِ » وَرَكِبوا خُيولَهُمْ اسْتِعْدادًا لِتَعَقُّبِهِمْ، وَفَجْأَةً كَرَّ العَبْسِيّونَ مِنْ جَديدٍ، وَتَراجَعَ بَنو « المُصْطَلَقِ » أَمامَ وابِلِ السِّهامِ الَّذي يُمْطِرونَهُمْ بِهِ.

وَلَكِنَّهُمْ في المَرَّةِ الثّالِثَةِ أَحَسّوا أَنَّ هَذِهِ هِيَ كُلُّ القُوَّةِ المُهاجِمَةِ، فَعِنْدَما فَرَّ العَبْسِيّونَ هَجَموا وَراءَهُمْ يَتَعَقَّبونَهُمْ، وَهُنا صاحَ « مالِكُ بْنُ زُهَيْر » صَيْحَةَ القِتالِ، وانْدَفَعَ يُسابِقُهُ « عَنْتَرَة » نَحْوَ الرَّبْوَةِ، وَيَتْبَعُهُ العَبيدُ الَّذينَ انْتَشَوْا مِنْ زَهْوِ انْتِصارِهِمُ السّابِقِ عَلى بَني « المُصْطَلَقِ »، فَأَصْبَحَتْ قُلوبُهُمْ لا تَهابُ المَوْتَ، وَأَصْبَحَتْ ضَرَباتُهُمْ لا تَعْرِفُ الخَطَأَ.

وَكانَ « عَنْتَرَة » يَضْرِبُ بِسَيْفِهِ فَيَشُقُّ الطَّريقَ أَمامَهُمْ

شَقّا ، وَلَمْ يَكُنِ الأَميرُ « مالِك » يَعْرِفُ حَتّى هَذِهِ اللَّحْظَةِ مَهارَةَ « عَنْتَرَة » الحَقيقِيَّةَ حَتّى رَآها رَأْيَ العَيانِ ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ فارِسٌ لا كالفُرْسانِ ، فَقَدْ كانَ « عَنْتَرَة » يَميلُ عَنْ جَوادِهِ لِيَتَّقِيَ الحِرابَ المُصَوَّبَةَ إِلَيْهِ ثُمَّ يَلْتَقِطُها مِنَ الهَواءِ وَيُعيدُ إطْلاقَها إلى صُدورِ أَصْحابِها ، ثُمَّ يَعودُ إلى سَيْفِهِ يَشُقُّ الأَجْسادَ وَالرُّؤوسَ ، وَيَحْطِمُ الخُوذاتِ وَالدُّروعَ في قُوَّةٍ وَهُوَ يَصيحُ :

« يا لَعَبْسٍ . . يا لَعَبْسٍ . »

وَمِنْ داخِلِ الحِلَّةِ أَجابَتْهُمُ الصَّيْحاتُ ؛ إِذْ أَدْرَكَ « زُهَيْر » أَنَّ النَّجْدَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ فَصاحَ بِرِجالِهِ ؛ فانْدَفَعوا مِنَ المَرْبِضِ في هَجْمَةٍ سَريعَةٍ شَلَّتْ مَنْ بَقِيَ أَمامَهُ مِنْ فُرْسانِ بَني « المُصْطَلَق » ، وَخَرَجَ « شَدّادُ بْنُ قُراد » بِمَنْ مَعَهُ في الدّارِ الَّتي تَتَوَسَّطُ الحِلَّةَ ، فَأَرْبَكَ فُرْسانَ بَني « المُصْطَلَق » ، وَانْضَمَّ الفَريقانِ في هَجْمَةٍ سَريعَةٍ

مِنْ خَلْفِ المُدافِعينَ، وَسَرْعانَ ما حوصِرَ فُرْسانُ بَني « المُصْطَلَقِ » بَيْنَ هُجومَيْنِ ساحِقَيْنِ.

وَحينَ سَمِعَ الأَميرُ « شاس » الصَّيْحاتِ تَتَعالى مِنَ الحِلَّةِ، اسْتَدارَ بِفُرْسانِهِ وَعادَ يُهاجِمُ مَنْ يَتَعَقَّبونَهُ وَقَدْ تَضامَّتْ صُفوفُهُ وَتَرابَطَ فُرْسانُهُ. وَأَدْرَكَ بَنو « المُصْطَلَق » أَنَّ الدّائِرَةِ قَدْ دارَتْ عَلَيْهِمْ، فَتَفَكَّكَتْ خُطوطُهُمْ، وَتَخاذَلَتْ مُقاوَمَتُهُمْ، وَانْدَفَعَ كُلُّ فارِسٍ يُحاوِلُ أَنْ يَشُقَّ لِنَفْسِهِ طَريقَ النَّجاةِ مِنْ مَوْتٍ مُحَقَّقٍ. وَحينَ الْتَقَتْ صُفوفُ العَبْسِيِّينَ كانَ بَنو « المُصْطَلَقِ » يَفِرّونَ مِنَ الحِلَّةِ جَماعاتٍ وَفُرادى.

وَالْتَقى المَلِكُ « زُهَيْر » بِابْنِهِ « مالِك » فَعانَقَهُ وَهُوَ يَقولُ: « هَكَذا يَكونُ فِعْلُ الفُرْسانِ ، يا ‹‹ مالِك ››. »

أَشارَ « مالِك » إلى مَنْ مَعَهُ مِنَ الفُرْسانِ وَقالَ: « الفَضْلُ فَضْلُهُمْ ، يا أَبي ، فَلَوْلاهُمْ ما انْتَصَرْنا. »

وَمَرَّتْ عُيونُ المَلِكِ « زُهَيْر » عابِرَةً عَلى « عَنْتَرَة » وَمَنْ مَعَهُ ، وَتَوَقَّفَتْ عِنْدَ ابْنِهِ « شاس » وَ « الرَّبيع » وَ « عُمارَة » ، فانْفَرَجَتْ أَساريرُهُ وَهُوَ يَقولُ:

« نِعْمَ الرِّجالُ، وَنِعْمَ الفُرْسانُ . »

وَتَقَدَّمَ بِفَرَسِهِ ناحِيَةَ ابْنِهِ « شاس » فَقَبَّلَهُ وَعانَقَهُ، ثُمَّ قَبَّلَ « الرَّبيع » وَ « عُمارَة »، بَيْنَما انْدَفَعَ « مالِكُ بْنُ قُراد » يُعانِقُ ابْنَهُ « عَمْرو بْنَ مالِك » وَهُوَ يَقولُ:

« أَصْبَحْتَ فارِسًا لا يُشَقُّ لَهُ غُبارٌ ، يا ‹‹ عَمْرو ››. نِعْمَ الفِعْلُ فِعالُكَ. »

كانَ « عَمْرو » مَذْهولاً، كَيْفَ يَحْظَوْنَ هُمْ بِالمَديحِ، بَيْنَما أَصْحابُهُ لا يَذْكُرُهُمْ أَحَدٌ، فَأَشارَ بِيَدِهِ إِلى « عَنْتَرَة » وَهُوَ يَقولَ: « إِنَّهُ . . إِنَّهُمْ . . »

هَزَّ « مالِك » رَأْسَهُ وَهُوَ يَقولُ :

« أَعْرِفُ ، ‹‹ عَنْتَرَة ›› وَعَبيدُ ‹‹ عَبْسٍ ›› شارَكوكُمْ، سَنُكافِئُهُمْ ، لا شَكَّ ، نِعْمَ المُكافَأَةُ. »

وَمَرَّ « شَدّادُ بْنُ قُراد » أَمامَ « عَنْتَرَة »، فَقالَ في فُتورٍ :

« أَحْسَنْتَ ، يا ‹‹ عَنْتَرَة ›› ، ذَكِّرْني أُكافِئُ مَنْ مَعَكَ مِنَ العَبيدِ. »

اِنْتِصارُ بَني عَبْس

اِنْطَلَقَ الأَميرُ « مالك » مَعَ مَجْموعَةٍ مِنَ الفُرْسانِ يُطارِدونَ الهارِبينَ مِنْ بَني « المُصْطَلَق » ، بَيْنَما أَمَرَ المَلِكُ « زُهَيْر » الأَميرَ « شاس » أَنْ يُنَظِّمَ جَمْعَ الأَسْلابِ وَحَرْقَ الحِلَّةِ تَمامًا لِتَكونَ دَرْسًا لِبَني « المُصْطَلَق » .

وَأَخَذَ هُوَ يُنَظِّمُ فُرْسانَهُ وَقَدْ حَلَّ اللَّيْلُ، لِيَعودوا إلى دِيارِ « عَبْس » ، فَأَمَرَ « مالِكَ بْنَ قُراد » أَنْ يَحْصُرَ القَتْلى وَالجَرْحى مِنْ بَني « عَبْس » ، بَيْنَما أَمَرَ « شَدّادَ بْنَ قُراد » أَنْ يَجْمَعَ الأَسْرى مِنْ بَني « المُصْطَلَق » . وَكانَ اللَّيْلُ قَدْ تَقادَمَ حينَ أَضاءَ فَجْأَةً بِنارٍ مُلْتَهِبَةٍ تَلْتَهِمُ كُلَّ شَيْءٍ في حِلَّةِ بَني « المُصْطَلَق » .

وَقالَ « عَنْتَرَة » لِـ « شَيْبوب » : « يَوْمٌ لَهُمْ وَيَوْمٌ

عَلَيْهِمْ. وَالوَيْلُ لِلْمَغْلوبِ. »

قالَ « شَيْبوب » : « لَسْتُ مُرْتاحًا إلى الأَمْرِ ، يا ‹‹ عَنْتَرَة ››، فَقَدْ نَسِينا القَوْمُ تمامًا. »

قالَ « عَنْتَرَة » في سُخْرِيَةٍ : « أَلَمْ تَسْمَعْ ما قالَهُ ‹‹ شَدّاد ›› ؟ سَأُذَكِّرُهُ لِكَيْ يَمُنَّ عَلى كُلٍّ مِنْكُمْ بِكُسْوَةٍ جَديدَةٍ، أَوْ بَعْضِ لَحْمٍ في طَعامِهِ. » وَضَحِكَ في مَرارَةٍ، وَلَكِنَّ « شَيْبوبًا » لَمْ يُشارِكْهُ ضَحِكَهُ، بَلْ قالَ: « لَقَدْ نَسِيَ ‹‹ الرَّبيع ›› أَنْ يَحْكِيَ لَهُمْ ما حَدَثَ. »

اِسْتَمَرَّ « عَنْتَرَة » في ضَحِكِهِ المُرِّ، ثُمَّ قالَ وَهُوَ يَكُفُّ عَنْهُ فَجْأَةً : « الَّذي نَسِيَ هُوَ الأَميرُ ‹‹ مالِك ››، فَقَدْ شَغَلَتْهُ المَعْرَكَةُ، وَلَكِنَّنا لَنْ نَنْسى نَحْنُ ما فَعَلْناهُ. اُنْظُرْ إلى وُجوهِ عَبيدِ قُرادٍ وَعَبْسٍ وَسَتُحِسُّ أَنَّ شَيْئًا جَديدًا قَدْ وُلِدَ اليَوْمَ في قُلوبِهِمْ. »

قالَ « شَيْبوب » وَهُوَ يُجيلُ بَصَرَهُ حَوْلَهُ : « تَعْني

‹‹ زاهِرًا ›› ؟»

قالَ « عَنْتَرَة » في إصْرارٍ: « الأَمْرُ لَيْسَ أَمْرَ ‹‹ زاهِر ›› وَحْدَهُ، انْظُرْ جَيِّدًا ، يا ‹‹ شَيْبوبِ ›› . »

رَدَّ « شَيْبوب » بَصَرَهُ إلى أَخيهِ وَهُوَ يَقولُ: « هَذا صَحيحٌ ، يا ‹‹ عَنْتَرَة ››، كَثيرونَ مِنْهُمْ لَنْ يَتَحَمَّلوا حَياةَ الرُّعاةِ العَبيدِ بَعْدَ اليَوْمِ . »

قالَ « عَنْتَرَة » في جِدِّيَّةٍ : « وَلا نَحْنُ أَيْضًا ، يا ‹‹ شَيْبوب ›› . »

رَفَعَ « شَيْبوب » رَأْسَهُ في دَهْشَةٍ وَهُوَ يَسْأَلُ: « ماذا تَعْني ، يا ‹‹ عَنْتَرَة ›› ؟»

قالَ « عَنْتَرَة » : « نَسِينا القَوْمُ فَلْنَنْسَهُمْ إذَنْ . اِجْمَعِ الخَيْلَ الَّذي أَخَذْناهُ بِسَواعِدِنا، وَكَذَلِكَ السِّلاحَ الَّذي كَسَبْناهُ بِدِمائِنا، وَ قُدِ الرِّجالَ إلى مَراعينا نَحْنُ، وَ خَيِّرْهُمْ: مَنْ أَرادَ أَن يَكونَ مَعَنا فَلْيَحْتَفِظْ بِجَوادِهِ،

وَسِلاحِهِ، وَمَنْ تَرَدَّدَ وَخافَ فَلْيَعُدْ إلى رِداءِ الرُّعاةِ، وَلْتَضُمَّ ما عِنْدَهُ مِنْ سِلاحٍ وَخَيْلٍ إلى ما مَعَنا، وَانْتَظِرْني هُناكَ. »

قالَ « شَيْبوب »: « هُناكَ.. أَيْنَ ؟»

قالَ « عَنْتَرَة » : « لا أَدْري أَيْنَ، وَلَكِنْ خارِجَ المَراعي، بَعيدًا عَنِ العُيونِ. »

قالَ « شَيْبوب »: « وَلَكِنْ ، يا ‹‹ عَنْتَرَة ›› . »

قالَ « عَنْتَرَة » في حَزْم: « اِنْتَظِرْني سَأَذْهَبُ مَعَكَ، وَلْنُسْرِعْ قَبْلَ أَنْ يَلْتَفِتَ القَوْمُ إلى غِيابِنا، وَلْنَعُدْ إلى الحِلَّةِ راجِلَيْنِ بَعْدَ أَنْ نَطْمَئِنَّ عَلى مَخْبَإِ الخَيلِ وَالسِّلاحِ. »

وأَشارَ بِيَدِهِ فَتَبِعَه « شَيْبوب » وَ « جَرير » وَ « زاهِر » وَباقي العَبيدِ المُسَلَّحينَ في صَمْتٍ وَسُكونٍ.

* * *

تَرَكَ المُنْتَصِرونَ الحِلَّةَ مُشْتَعِلَةً وَراءَهُمْ، وَساقوا

الأَسْرى وَالغَنائِمَ، أمامَهُمْ، وَمَضَوْا فَرِحينَ إلى دِيارِهِمْ، وَقَدِ ازْدَهاهُمُ النَّصْرُ وَمَلأَتْ أَعْطافَهُمْ نَشْوَةُ الفَوْزِ، وَكُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ يَتَفاخَرُ بِما فَعَلَهُ في المَعْرَكَةِ، وَما أَحْدَثَهُ مِنْ خَسائِرَ في الأَعْداءِ، إلا « عَمْرو بْنَ مالِك » الَّذي كانَ يَسيرُ إلى جِوارِ أَبيهِ وَعَمِّهِ وَهُوَ مُطْرِقٌ ساهِمٌ حَزينٌ.

وَلاحَظَ « مالِك » ما فيهِ ابْنُهُ مِنْ سُهومٍ وَشُرودٍ، فَقالَ:

« يا ‹‹ عَمْرو ›› ، لِماذا هَذا الإِطْراقُ، وَاليَوْمَ حَقَّقَتْ ‹‹ عَبْس ›› انْتِصارَها الحاسِمَ عَلى بَني ‹‹ المُصْطَلَق ›› ؟»

ضَحِكَ « شَدّاد » وَهُوَ يَقولُ: « لَنْ تَقومَ لَهُمْ قائِمَةٌ بَعْدَ اليَوْمِ، والفَضْلُ لِلأَميرِ ‹‹ مالِكِ بْنِ زُهير ›› وَ ‹‹ الرَّبيع ابْنِ زِياد ›› وَأَنْتَ . »

فَرَفَعَ « عَمْرو » رَأْسَهُ، وَهُوَ يَقولُ: « بَلِ الفَضْلُ الحَقيقِيُّ لِـ ‹‹ عَنْتَرَة ›› . »

صاحَ « شَدّاد »: « ‹‹ عَنْتَرَة ›› ! هُوَ حَقّاً كالوَحْشِ

الكاسِرِ في القِتالِ ، وَلَكِنَّنا كُلَّنا قاتَلْنا وَانْتَصَرْنا . »

وَضَحِكَ « مالِك » وَهُوَ يَقولُ : « أ لَيْسَ هَذا هُوَ ‹‹ عَنْتَرَة ›› الذي جِئْتَني صارِخًا تَطْلُبُ الخَلاصَ مِنْهُ وَمِنْ شِعْرِهِ يا ‹‹ عَمْرو ›› ؟»

قالَ « عَمْرو » : « لَقَدْ أَنْقَذَ نِساءَ ‹‹ عَبْس ›› اليَوْمَ مِنَ الأَسْرِ ، وَأَنْقَذَني وَفُرْسانَ ‹‹ عَبْس ›› مِنَ المَهانَةِ ، وَقَلَبَ نَصْرَ بَني ‹‹ المُصْطَلَقِ ›› عَلَيْنا إلى هَزيمَةٍ ، وَفي هَذِهِ المَعْرَكَةِ الأَخيرَةِ كانَ وَحْدَهُ بِقُوَّةِ عَشَرَةِ فُرْسانٍ ، بَلْ لَوْلاهُ عِنْدَ الهُجومِ ما حَسَمْنا المَعْرَكَةَ لِصالِحِنا . »

ضَحِكَ « شَدّاد » وَهُوَ يَقولُ : « إعْجابُكَ بِهِ يُفْرِحُني وَسَأُكْرِمُهُ . »

صاحَ « عَمْرو » في حَنَقٍ : « هَذا لا يَكْفي ، يا عَمِّ . »

قالَ « مالِك » : « كَفى ، يا ‹‹ عَمْرو ›› ، فَحَماسُكَ يُعْمي عَيْنَيْكَ ، وَلَيُنْسيكَ غَضَبَكَ عَلَيْهِ ، ما هُوَ إلا عَبْدٌ لا

أَكْثَرَ وَلا أَقَلَّ . »

وَصَمَتَ « عَمْرو » في حَنَقٍ ، وَمَضى الفُرْسانُ يَشُقّونَ اللَّيْلَ إلى الحِلَّةِ .

* * *

سَبَقَ البَشيرُ إلى الدِّيارِ بالنَّصْرِ فأضاءَتِ المَشاعِلُ اللَّيْلَ البَهيمَ ، وَتَأَلَّقَتِ (الشَّرَبَّةُ وَالعَلَمُ السَّعْدِيُّ) بِأَنْوارِ المَشاعِلِ ، وَامْتَلأَتْ بِأَصْواتِ المَزاهِرِ وَالدُّفوفِ وَغِناءِ النِّساءِ ، وَارْتَفَعَتِ الرَّوائِحُ الشَّهِيَّةَ وَالزَّكِيَّةُ مِن القُدورِ الَّتي مُلِئَتْ باللُّحومِ المُقَدَّمَةِ لِوَليمَةِ النَّصْرِ . وَانْطَلَقَ الأَطْفالُ يُغَنّونَ وَيَلْعَبونَ حَوْلَها ، وَكَأَنَّما تَحَوَّلَ لَيْلُ « عَبْس » إلى نَهارٍ وَضّاحٍ .

وَما إنْ وَصَلَ الرَّكْبُ المُنْتَصِرُ حَتّى عَلَتِ الزَّغاريدُ وَالأَغانِيُّ ، وَصَدَحَتِ الدُّفوفُ وَالمَزاهِرُ ، وَانْطَلَقَتْ كُلُّ امْرَأَةٍ تَبْحَثُ عَنْ رَجُلِها وَتَطْمَئِنُّ عَلَيْهِ ، وَحُمِلَ الجَرْحى

إلى بَيْتِ المَلِكِ لِلْعِنايَةِ بِجُروحِهِمْ. وَساقَ « شَدّاد » الأَسْرى إلى مَرابِضِ الخَيْلِ لِسَجْنِهِمْ. وَذَهَبَ الفُرْسانُ جَميعًا إلى دارِ المَلِكِ يُناقِشونَ ما حَدَثَ اسْتِعْدادًا لانْتِهاءِ نُضْجِ الطَّعامِ لِيُشارِكوا في الوَليمَةِ الجَماعِيَّةِ الَّتي أقامَتْها نِساءُ « عَبْس ».

وَتَفَقَّدَتْ « زَبيبَة » القادِمينَ فَلَمْ تَجِدْ بَيْنَهُمْ أَيَّ واحِدٍ مِنْ أَبْنائِها، فَذَهَبَتْ إلى « شَدّاد » صارِخَةً: « أَوْلادي.. أَيْنَ ‹‹ عَنْتَرَة ›› و ‹‹ شَيْبوب ›› وَ ‹‹ جَرير ›› ؟ لَقَدْ خَرَجوا مَعَ الخارِجينَ وَلَكِنّي لا أَراهُمْ مَعَ العائِدينَ. »

ضَحِكَ « شَدّاد » وَهُوَ يَقولُ: « أَوْلادُكِ بِخَيْرٍ، اِبْحَثي عَنْهُمْ بَيْنَ العَبيدِ الَّذينَ يُعِدّونَ الطَّعامَ، رُبَّما كانوا يَلْهونَ هُناكَ. »

وَ وَجَمَتْ « زَبيبَة » مِنْ حَديثِهِ وَلَهْجَتِهِ، وَلَكِنَّها قالَتْ في إصْرارٍ: « أَلَمْ يُصَبْ مِنْهُمْ أَحَدٌ ؟ أَلَيْسوا بَيْنَ الجَرْحى

أَو . . أَوِ القَتْلى ؟»

في اسْتِهْتارٍ قالَ « شَدّاد » : « أَوْلادُكِ لَهُمْ سَبْعَةُ أَرْواحٍ يا امْرَأَةُ، لا يَموتونَ، وَالشَّياطينُ تَحْرُسُهُمْ فَلا يُجْرَحونَ . »

وَضَحِكَ في اسْتِخْفافٍ وَتَرَكَها وَمَضى، فَقالَتْ «سُمَيَّة »: « لا تُراعي ، يا ‹‹ زَبيبَة ››، فَهُمْ بِخَيْرٍ، وَإلا كانَ ‹‹ شَدّاد ›› أَخْبَرَكِ بِما حَلَّ بِهِمْ . »

وَقالَتْ « أَسْماءُ » : « وَماذا سَيَحْدُثُ لِمِثْلِهِمْ ؟ إنَّ العَبيدَ لا يُقْتَلونَ في الحُروبِ . »

صاحَتْ « عَبْلَة » في حَنَق : « لأَنَّ العَبيدَ لا يُقاتِلونَ في الحُروبِ، أَمّا ‹‹ عَنْتَرَة ›› فَهُوَ أَبْسَلُ مَنْ قاتَلَ اليَوْمَ . »

ضَحِكَتْ « سُمَيَّةُ » في اسْتِخْفافٍ وَقالَتْ : « إنَّما كانَ يُحاوِلُ أَنْ يُثْبِتَ أَهَمِّيَّتَهُ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ، يا ‹‹ عمرو ›› ؟»

قالَ « عَمْرو » وَ في صَوْتٍ حَزينٍ : « لَقَدْ ظَلَمْناهُ ، يا أُمِّ . ‹‹ عَنْتَرَة ›› فارِسٌ كَأَرْوَعِ ما يَكونُ الفُرْسانُ . »

اِبْتَهَجَ قَلْبُ « عَبْلَة » ، وَهِيَ تَنْدَفِعُ نَحْوَ أَخيها قائِلَةً : « هَذا كَلامٌ جَديدٌ ، يا ‹‹ عَمْرو ›› . »

أَطْرَقَ « عَمْرو » بِرَأْسِهِ وَهُوَ يَقولُ : « لَقَدْ ظَلَمْتُهُ ، يا ‹‹ عَبْلَة ››، وَلَكِنْ إن الكِبارَ يَنْسَوْنَ في كِبْرِهِمْ وَصَلَفِهِمْ قَدْرَهُ، فَأَنا اليَوْمَ عَرَفْتُ أَنَّهُ إِنَّما يُصْدِرُ عَنْ نَفْسٍ باسِلَةٍ وَقَلْبٍ كَريمٍ . »

قالَتْ « عَبْلَة » وَقَلْبُها يَخْفُقُ : « وَلَنْ تُعادِيَهُ بَعْدَ اليَوْمِ ؟»

صاحَتْ « أَسْماء » في عَصَبِيَّةٍ : « ما هذا الكَلامُ ، يا ‹‹ عَبْلَة ›› ؟»

وَلَكِنَّ « عَمْرًا » قالَ : « بَلْ إِنّي أُحِبُّ فِعالَهُ، وَأَفْتَحُ قَلْبي مِنَ اليَوْمِ لِكَلِماتِهِ، فَمِثْلُهُ لا يَقولُ إلا أَنْبَلَ

الكَلِماتِ . »

قالَتْ « زَبيبَة » وَهِيَ تَبْكي : « وَلَكِنَّهُمْ يُنْكِرونَ جَميعًا فَضْلَهُ، وَلا يَتَحَدَّثُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إلا عَنْ ‹‹ مالِكِ بْنِ زُهَيْر ›› وَ ‹‹ الرَّبيعِ بْنِ زِياد ››، أَمّا ‹‹ عَنْتَرَة ›› فَقَدْ نَسَوْهُ . »

أَطْرَقَ « عَمْرو » وَهُوَ يَقولُ: « يَوْمًا ما سَيَذْكُرونَهُ ، يا خالَةُ، يَوْمًا ما سَيَذْكُرونَهُ . »

أَنْهى « شَدّاد » هَذا الحِوارَ الَّذي كانَ يُتابِعُهُ في صَمْتٍ قائِلا :

« لا تَشْغَلوا بالَكُمْ بِهَذا العَبْدِ، فَلَوْ أَنَّنا مَجَّدْنا كُلَّ مَنْ أَبْلى في القِتالِ مِنَ العَبيدِ – لَما عادَ لَنا هَيْبَةٌ في قُلوبِهِمْ، وَما عُدْنا نَسْتَطيعُ أَنْ نَضَعَهُمْ في أَمْكِنَتِهِمْ. إِنَّما العَبيدُ يُقاتِلونَ لأَنَّنا نَأْمُرُهُمْ أَنْ يُقاتِلوا ، فإذا ما انْتَصَرْنا فالنَّصْرُ لَنا ، وَسَنَنْظُرُ في مُكافَأَتِهِمْ، وَلَنْ يَطولَ انْتِظارُنا،

فَسَرْعانَ مايَدِبُّ الخِلافُ بَيْنَهُمْ مِنْ جَديدٍ وَيَكْفونَنا مَئُونَةَ إعْطاءِ هَذِهِ المُكافَآتِ الَّتي نُعْطي الوُعودَ بِها وَنَحْنُ لا نَنْتَوي أيَّ وَفاءٍ . »

صاحَتْ « عَبْلَة » : « أَيُّ ظُلْمٍ هَذا ، يا عَمِّ ؟»

وَقالَ « عَمْرو » : « بَلْ هَذِهِ شَريعَتُهُمْ ، يا ‹‹ عَبْلَة ›› وَلا تَغْييرَ لَها إلا إذا أَفاقَ العَبيدُ لِحُقوقِهِمْ، وَتَمَسَّكوا بِها ، وَعَرَفوا كَيْفَ يُدافِعون عَنْ رُجولَتِهِمْ . »

* * *

في دارِ المَلِكِ « زُهَيْر » أَخَذَ كُلُّ الفُرْسانِ أَماكِنَهُمُ المُعْتادَةَ حَوْلَهُ، وَقالَ المَلِكُ: « لَقَدْ قامَ كُلٌّ مِنْكُمْ بِواجِبِهِ ، وَلِهذا حَقَّقْنا النَّصْرَ . وَأَنا أُهَنِّئُكُمْ وَأَنْتُمْ كُلُّكُمْ حُضورٌ . »

قالَ « مالِكُ بْنُ زُهَيْر » وَهُوَ يَلْتَفِتُ حَوْلَهُ في حَيْرَةٍ : « وَلَكِنْ أَيْنَ ‹‹ عَنْتَرَة ›› ؟»

قالَ « شَدّاد » : « مَعَ العَبيدِ فيما أَحْسَبُ أَيُّها الأَميرُ. »

قالَ « مالِك » : « لا ، مَكانُهُ هُنا ، فَهُوَ مِحْوَرُ هَذا النَّصْرِ وَأَساسُهُ الأَوَّلُ. »

صاحَ « الرَّبيع » : « كَفى ، أَيُّها الأَميرُ ‹‹ مالِك ›› تَصْديعًا لِرُؤوسِنا بِالحَديثِ عَنْ ‹‹ عَنْتَرَة ››، إِثْرَ كُلِّ غَزْوَةٍ أَوِ اشْتِباكٍ أَوْ مُشاجَرَةٍ تَدورُ بَيْنَ العَبيدِ. »

قالَ « مالِك » في صَبْرٍ: « المَلِكُ لا يَعْرِفُ الحَقيقَةَ كامِلَةً. »

ثُمَّ مَضى يَحْكي عَلى المَلِكِ القِصَّةَ مِنْ أَوَّلِها وَسْطَ تَمَلْمُلِ « شَدّاد » وَ « مالِك » وَ « الرَّبيع » وَ « عُمارَة »، وَما إِنْ أَنْهى قِصَّتَهُ حَتّى قالَ المَلِكُ: « وَجَبَ عَلَيْنا تَكْريمُهُ؛ فَمِثْلُهُ مَنْ لا يُفَرِّطُ فيهِ عاقِلٌ. »

صاحَ « الرَّبيع » : « لَقَدْ هَرَبَ بِالخَيْلِ ، فَأَينَ الخَيْلُ الَّتي كانَ يَرْكَبُها هُوَ وَالعَبيدُ ؟ »

قالَ « مالِك » في دَهْشَةٍ : « هَذِهِ لَيسَتْ مِنْ خَيْلِ ‹‹ عَبْس ›› ، إنَّها خَيْلٌ أَسَرَها مِنْ بَني ‹‹ المُصْطَلَقِ ›› . »

قالَ « الرَّبيع » : « ما أَسَرَتْهُ عَبْسٌ يَعودُ إلى عَبْسٍ ، لا إلى عَبيدِ عَبْسٍ . »

قالَ المَلِكُ « زُهَيْر » : « هَذا صَحيحٌ ، وَإلا تَرَكْنا لِكُلِّ عَبْدٍ أَنْ يَأْخُذَ ما تَقَعُ عَلَيْهِ يَداهُ مِنْ غَنائِمَ . »

قالَ « مالِكُ بْنُ زُهَيْر » : « وَلَكِنَّ هَذِهِ الخَيْلَ أَخَذَها ‹‹ عَنْتَرَة ›› وَعَبْسٌ كُلُّها في الأَسْرِ ، نِصْفُها في ديارِها ، وَنِصْفُها في دِيارِ بَني ‹‹ المُصْطَلَقِ ›› . »

صاحَ « المَلِكُ » في حَنَقٍ : « أَتُعَرِّضُ بي ، يا ‹‹ مالِك ›› ؟ لا ، هَذا كَلامٌ لا أَقْبَلُهُ ، الحَرْبُ دَوّارَةٌ ، يَوْمٌ لَنا وَيَوْمٌ عَلَيْنا . »

وَصاحَ « الرَّبيعُ بْنُ زِياد » : « لِيُعِدِ الخَيْلَ فَهُوَ في حُكْمِ سارِقِها . »

صاحَ المَلِكُ « زُهَيْر » : « يا ‹‹ شَدّاد ›› ، لا بُدَّ أنْ يُعيدَ ‹‹ عَنْتَرَة ›› الخَيْلَ إلى أَسْلابِ عَبْسٍ وَفي الحالِ . »

قامَ « شَدّاد » مِنْ مَجْلِسِهِ وَاتَّجَهَ خارِجًا وَهُوَ يَقولُ : « إنْ لَمْ يُعِدْها ؛ لي مَعَهُ كَلامٌ . »

* * *

كانَتْ فَرْحَةُ « زَبيبَة » لا تَعْدِلُها فَرْحَةٌ بِعَوْدَةِ أَبْنائِها مِنَ المَراعي ، وَكانَتْ تُمْلي عَيْنَيْها مِنْ وُجوهِهِمْ وَهِيَ تُنَقِّلُ نَظَراتِها الحانِيَةَ بَيْنَهُمْ ، حينَ اقْتَحَمَ « شَدّاد » الدّار في صَخَبٍ عَنيفٍ وَهُوَ يَصيحُ :

« أَيْنَ ‹‹ عَنْتَرَة ›› ؟ أَيْنَ ابْنُكِ هَذا العَبْدُ الأَسْوَدُ الَّذي لا يَكُفُّ عَنْ أَفْعالِ السّوءِ ؟»

قالَ « عَنْتَرَة » : « أَنا هُنا ، يا أَبي . »

صاحَ « شَدّاد » : « قُلْتُ لَكَ لا تَقُلْ أَبي ، أَنا سَيِّدُكَ أَيُّها العَبْدُ . أَيْنَ الخَيْلُ الَّتي أَخَذْتَها مِنَ الأَسْلابِ ؟»

نَظَرَ « عَنْتَرَة » إلى « شَيْبوب » ثُمَّ إلى « جَرير » نَظْرَةً فاهِمَةً، ثُمَّ قالَ:

« لَمْ نأخُذْ شَيْئًا مِنَ الأَسْلابِ، يا سَيِّدي ‹‹ شَدّاد ››. »

صاحَ « شَدّاد » في عُنْفٍ: « أَلَمْ تكُنْ تَرْكَبُ خَيْلاً أَنْتَ وَالعَبيدُ؟ مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ بِها؟»

قالَ « عَنْتَرَة » في هُدوءٍ: « اِنْتَزَعْناها مِنْ تَحْتِ فُرْسانِها مِنْ بَني ‹‹ المُصْطَلَقِ ››، وَهُم يَتَعَقَّبونَ نِساءَ عَبْسٍ الهارِباتِ. »

وَجَمَ « شَدّاد » فَصاحَتْ « زَبيبَة »: « هَذا صَحيحٌ، يا ‹‹ شَدّاد ››، واسْأَلْ كُلَّ نِساءِ عَبْسٍ، كُنّا سَنُصْبِحُ سَبِيّاتٍ لَوْلا ‹‹ عَنْتَرَة ›› وَرِجالُهُ. »

صاحَ « شَدّاد » في صَخَبٍ وَسُخْرِيَةٍ:

« رِجالُهُ؟ مُنْذُ مَتى كانَ لِلْعَبْدِ رِجالٌ؟ قولي عَبْدي أَنا

وَعَبيدُ عَبْسٍ . هَذِهِ الخَيلُ أَنْتَ سارِقُها مِنْ أَسْلابِ عَبْسٍ ، وَلا بُدَّ أَنْ تُعيدَها إِلَيْهِمْ في الحالِ . »

صاحَتْ « زَبيبَة » : « هَذا ظُلْمٌ . »

وَقالَ « عَنْتَرَة » في هُدوءٍ : « وَإِنْ لَمْ أُعِدْها ؟ »

قالَ « شَدّاد » في عُنْفٍ : « عامَلْناكَ مُعامَلَةَ السّارِقِ ؛ فَقَطَعْنا يَدَكَ وَقَدَمَكَ مِنْ خِلافٍ أَنْتَ وَكُلَّ مَنْ شارَكَكَ مِنَ العَبيدِ في سَرِقَةِ هَذِهِ الخَيْلِ . »

قالَ « عَنْتَرَة » : « الخَيْلُ في المَرْعى ، يا سَيِّدي « شَدّاد » ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ أَنْ تَحْصُلوا عَلَيْها أَوَّلاً . »

اِلْتَفَتَ إِلَيْهِ « شَدّاد » وَهُوَ يَسْأَلُ في دَهْشَةٍ : « ماذا تَعْني ، يا « عَنْتَرَة » ؟ »

قالَ « عَنْتَرَة » : « يَعْني أَنَّ سُيوفَنا الَّتي أَسَرَتْها مِنْ بَني « المُصْطَلَق » سَتَحْميها مِنْ أَيِّ مُعْتَدٍ . »

وَجَمَ « شَدّاد » وَأُرْتِجَ عَلَيْهِ ، وَأَخَذَ يَنْظُرُ إِلى « عَنْتَرَة »

وَ « شَيْبوب » وَ « جَرير »، وَما رَآهُ في وُجوهِهِمْ زادَهُ وُجومًا، ثُمَّ قالَ في تَرَدُّدٍ:

« إِذَنْ ما قالوهُ عَنْ أَفْعالِكُمْ في حَرْبِ الْيَوْمِ كانَ صَحيحًا، وَدَخَلَ هَذا في رُؤوسِكُمْ فَمَلأَها زَهْوًا وَنَسيتُمْ مَكانَكُمْ. »

قالَ « عَنْتَرَة »: « لَمْ نَنْسَ مَكانَنا. ‹‹ عَبْس ›› هِيَ الَّتي تَنْسى. وَإِلى أَنْ تَذْكُرَ ‹‹ عَبْس ›› فَلا مَكانَ لَنا فيها. »

صاحَ « شَدّاد » : « أُبْقيكَ بِالْقُوَّةِ . »

قالَ « عَنْتَرَة » : « لَنْ يَتْبَعَكَ أَحَدٌ فيما تُريدُ. أَنْتَ نَسيتَ أَنَّ وَلاءَ نِساءِ عَبْسٍ وَفِتْيانِها الْيَوْمَ لي . »

أَدارَ « شَدّاد » بَصَرَهُ بَيْنَ « عَنْتَرَة » وَأَخَوَيْهِ في حَنَقٍ، بَيْنَما هَمَسَتْ « زَبيبَة »: « إِنَّ اسْمَ ‹‹ عَنْتَرَة ›› الْيَوْمَ أُغْنِيَةٌ في كُلِّ دارٍ ، يا ‹‹ شَدّاد ››، وَسَواءٌ رَضيتُمْ ، مَعْشَرَ السّادَةِ ، أَوْ كَرِهْتُمْ لَنْ يَجْرُؤَ أَحَدٌ الْيَوْمَ أَنْ يَمَسَّ

شَعْرَةً مِنْ ‹‹ عَنْتَرَة ›› . »

ضَحِكَ « شَدّاد » فَجْأَةً ثُمَّ قالَ : « في غَدٍ يَنْسَوْنَ ، وَفي غَدٍ عِقابُكَ ، يا ‹‹ عَنْتَرَة ›› . »

قالَ « عَنْتَرَة » : « أَنا ماضٍ قَبْلَ أَنْ يَجيءَ هَذا اليَوْمُ . »

صاحَ « شَدّاد » في غَضَبٍ : « أَنْتَ لَنْ تَمْضِيَ وَحْدَكَ ، بَلْ أَنا أَطْرُدُكَ أَنْتَ وَأَخَوَيْكَ . اُخْرُجْ وَلا تَعُدْ . وَلَوْ رَأَيْتُكَ في الدِّيارِ مَرَّةً أُخْرى أَحْلَلْتُ دَمَكَ لِكُلٍّ مَنْ يُريدُ قَتْلَكَ . »

لَمْ يَرُدّ « عَنْتَرَة » ، إِنَّما نَظَرَ إِلى أَبيهِ في وُجوم ، وَتَقَدَّمَ فَقَبَّلَ أُمَّهُ الباكِيَةَ في صَمْتٍ ، وَأَشارَ إِلى أَخَوَيْهِ اللَّذَيْنِ غادَرا الدّارَ وراءَهُ في هُدوءٍ .

* * *

قالَتْ « عَبْلَة » : « وَتَمْضي ؟ »

قالَ « عَنْتَرَة » : « إِلى أَنْ تَعْرِفَ عَبْسٌ وَتَذْكُرَ ، ساعَتَها أَعودُ . »

قالَتْ « عَبْلَة » : « سَيَأْتي يَوْمٌ تَعْرِفُ عَبْسٌ وَتَذْكُرُ، وَتعودُ ، يا ‹‹ عَنْتَرَة ›› . قَلبي يُحَدِّثُني بِهَذا . »

نَظَرَ في عَيْنَيْها طَويلا ، ثُمَّ أَطْرَقَ، وَانْصَرَفَ وَهُوَ يَقولُ: « يَكْفيني حَديثُ قَلْبِكِ ، يا ‹‹ عَبْلَة ›› . »

وَمَضى يَتْبَعُهُ أَخَواهُ إلى مَخْبإ الخَيْلِ عِنْدَ المَرْعى، يَحْرُسُها « زاهِر » وَعَبيدٌ أقْسَموا أَنْ يَخْلَعوا رِداءَ المَرْعى، وَأَنْ يَرْتَدوا زِيَّ الفُرْسانِ، وَيَحْمِلوا سِلاحَ الفُرْسانِ، وَيَرْكَبوا خَيْلَ الفُرْسان. فَقَدْ وَجَدوا أَنْفُسَهُمْ، وَ وَجَدوا رُجولَتَهُمْ، وَعَرَفوا أَنَّ الأحْلامَ لا تُحَقِّقُها إلا الأَفْعالُ وَالهِمَمُ وَالمُغامَرَةُ وَالتَّضْحِياتُ.

الينابيع تتفجَّر من التُّراث العربيّ الأصيل ، ومن السِّيَرِ الشَّعبية الغَنيَّة ، ومن الحِكايات الشَّعبية العَربيَّة ؛ لِتُصوِّر نماذج مُضيئة من تراثنا ، وتعرِض قِيمًا مُشرقة في حياتنا : تمزج بين الجِدِّ ، والفُكاهة في لُغة هادِئة راقية : لا تعلو فتعوق القارئ وتصدّه ولا تسِفُّ فتهبط بذوقه ومستواه ، وإنما تمتِّع وِجدانه وقلبه ، وتُثري فِكره وعقله .

الينابيع

١- سيف الإحسان وقصص أخرى
٢- حبات العقد وقصص أخرى
٣- الباحث عن الحظ وقصص أخرى
٤- مشورة قصير وقصص أخرى
٥- الشعرة الذهبية وقصص أخرى
٦- عنترة بن شداد : مولد البطل
٧- عنترة بن شداد : عبلة و[illegible]
٨- عنترة بن شداد : الس[illegible]
٩- عنترة بن شداد : يوم [illegible]
١٠- رحلة السندباد المجهولة

Bibliotheca Alexandrina
0295141

يطلب من : **شركة أبو الهول للنشر**
٣ شارع شواربي بالقاهرة ت : ٣٩٣٥٦٠٨ ؛ ٣٩٢٤٦١٦
١٢٧ طريق الحرية (فؤاد سابقا) - الشلالات ، الإسكندرية ت : ٤٩٢٤٨٣٩